التَّـرَف

مفاسده ومخاطره على المجتمعات

دراسة في ضوء القصص القرآني "قصة سبأ أنموذجًا"

إعداد الدكتور

فتحي سباق أبو سمرة عابد

مدرس التفسير وعلوم القرآن

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة

جامعة الأزهر

التَّـرَف مفاسده ومخاطره على المجتمعات: دراسة في ضوء القصص القرآني (قصة سبأ أنموذجًا)

فتحي سباق أبو سمرة عابد

قسم أصول الدين، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، جامعة الأزهر- مصر

البريد الإلكتروني: Fathiabed557.el@azhar.edu.eg

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى بيان مفهوم التَّرَف، وتناول القرآن الكريم لهذه الظاهرة، وإبراز مفاسدها ومخاطرها على المجتمعات، وذلك من خلال عرض قصة سبأ كأنموذج تطبيقي من القصص القرآني، واستخلاص ما فيها من دروسٍ وعِبَرٍ.

وقد جاء البحث- بعد المقدمة- في مبحثين: الأول، وفيه: التعريف بمفهوم التَّرف والمصطلحات ذات الصلة، وذِكر مواضع وُرُودِهِ في القرآن، والثاني، وقد اشتمل على قِصَّة سبأ كأُنموذجٍ قرآنيٍّ لمفاسد التَّرف ومخاطره على المجتمعات.

وقد خلصتُ من هذا البحث إلى عدة نتائج، أبرزها: التَّرَف أهم سنن الله المُطَّردة في إهلاك الأمم، وهو أساس كل فساد، والسبب الرئيس في سقوط الحضارات وهلاك المجتمعات.

وأيضًا: وجوب النظر في سُنن الله تعالى والاعتبار بما آلَ إليه مصير المُترَفين في الأمم السابقة.

الكلمات المفتاحية: التَّرف، المُترفون، القصص القرآني، قصة سبأ، السُّنن الإلهية.

“Luxury, its corruptions and dangers to societies: a study in light of Qur’anic stories (The story of Saba as a model)”

Fathi Sabbaq Abusamra Abed.
Quran Studies and Interprertation Department, Religion Fundamentals
Faculty of Islamic and Arabic Studies, for Male Campus in Cairo.
Al Azhar University, Egypt
Email: Fathiabed557.el@azhar.edu.eg

Study Abstract:
This research aims to clarify the concept of The Worldly Wealth “LUXURY”, and the Holy Qur'an addresses this phenomenon, and highlights its corruptions and dangers to societies, through applied models of Quranic stories and extracting lessons from them.
The research consists - after the introduction - of two sections: the first, includes: the definition of the concept of “LUXURY”, related terms, and the places of its occurrence in the Holy Quran, and the second, The story of Saba as a Qur’anic model of the evils of luxury and its dangers to societies.
I have concluded from this research to several results, most notably: Luxuries and comforts are the most important practice of God in the destruction of nations, which is the basis of all corruption, and the main reason for the fall of civilizations and the destruction of societies. Also: It is obligatory to consider the The practice (approved) of Allah Almighty and to consider what has become of the
fate of the opulance in previous nations.

Keywords:
Luxury, The Wealthly, Qur’anic stories, The story of Saba, The practice (approved) of Allah

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد ﷺ المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد

فإن الناظر بعين الاعتبار في أحوال الأمم يتبين له أنه ما من أمة من أمم الأرض تقوم أو تسقط اعتباطًا، بل بناءً على سنن وقوانين ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، والمتأمل في القرآن الكريم يجده حافلًا بالحديث عن أسباب دمار الأمم وهلاكها، وسقوط حضارتها، وذهاب مجدها وعزِّها -برغم ازدهارها المادي والعمراني- فتذل بعد عزة، وتضعف بعد شدة وقوة، وتهون بعد تمكين، وتتقهقر بعد ازدهار، وتُدْبِر بعد إقبال، وتسقط بعد قِيَام.

وقد بيَّن القرآن الكريم أن كلَّ واحدٍ من هذه الأسباب حَرِيٌّ أن يقوِّض صرح أي حضارة، ويُعجِّل بعقاب الله وبأسه الذي لا يُرَدّ عن القوم المجرمين، فكيف إذا اجتمع عدد منها في أمة من الأمم أو مجتمع من المجتمعات؟

ومن الحقائق التي أوردها القرآن الكريم: أن الترف غَدَا سنة من سنن الله في إهلاك الأمم، وتقرر سببًا من أظهر أسباب سقوط الحضارات، وداءً من أخطر الأدواء التي تُودِي بحياة الأمة، وتُنذِر بانهيارها، وتنحدِر بها إلى هاوية الفساد والانحلال الاجتماعي.

ومن هنا أعلن القرآن حملة شعواء على الترف والمترفين؛ وسر ذلك أن الترف عامل من أقوى وأسرع وأخبث عوامل التفتت الاجتماعي؛ لأن الانغماس فى مرتع الشهوات وإشباع الغرائز الجامحة يميت الشعور بالنخوة، ويقتل الإحساس بالعزَّة والغيرة، ويجعل الرذائل من مألوفات الحياة في المجتمع الذي يقوده المترفون؛ إذ يجعل هذه الرذائل ميدانًا

للتنافس الفاجر، فلا يهتم المجتمع برفع رأســه إنكارًا لها، بل يجد المجتمع فى كُبرائه المترفين مَن ينكر على مَن ينكر هذه الرذائل، وتصــبح الفضــائل الخلقية والقيم الروحية غرائبَ في نظر هذا المجتمع المنحلّ المتحلِّل، وعندئذ تحق عليهم كلمة الله، وسـنته التي لا تتخلف نتائجها عن مقدماتها، وتنفذ إرادته، وتحل بهذا المجتمع عوامل الفناء[١].

"ومما يُسَــجَّل للقرآن: أنه حلَّلَ الترف وأخطاره تحليلًا دقيقًا مُبيِّنًا ما يترتب عليه من أخطار جســيمة، وفي مقدمة ذلك أنه مُهلِك للأمم، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾[٢][٣]".

يقول الشيخ محمد الغزالي: "إن الأمم الفاسدة تلتقي في أحوالها نعوتٌ واحدة: قسوةٌ لا ترق لضـعف، وجحودٌ لا يكترث بوعظ، وعكوفٌ على الدنيا لا يُهْتَمّ لما بعدها، ونسـيانٌ لله لا يُبالَى بحقّه، وبقاء الأمم بهذه المثابة بلاءٌ على العالم، وعلى العمران، وعلى المُثل العُليا"[٤].

ومن ثَمَّ فالترف له مفاســد عظيمة على المجتمعات؛ فما كثر المُترَفُون في مجتمع إلا أسرع إليه الانحلال، وفقد الضوابط الخُلقية التي تحفظ عليه توازنه وتماسكه[٥]، وهو معول هدمٍ في الدول القديمة والحديثة على الســواء، "والناظر في ســقوط كثير من الأمم كالرومان والفرس، وكذا الناظر في سقوط الدولة العباسية، وفي ضياع الأندلس يرى أن من أهم أسباب

(١) ينظر: سنن الله في المجتمع: محمد الصادق عرجون، صـ٢٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

(٣) الخطايا في نظر الإسلام: عفيف طبارة، صـ١٥٨.

(٤) نظرات في القرآن الكريم، صـ٨٩.

(٥) ينظر: الترف وأثره في مصائر الأمم: محمد المجذوب، صـ٢٨.

سقوط الممالك والدول هو الترف"[١].

والأمم المُتْرَفة لا تَحْيَى إلا لهدف إشباع رغباتها، ولا تنشغل إلا بشهواتها فعندما "تبدأ بالتمتع بالترف والثراء الذي حصلت عليه يؤدي ذلك إلى ميوعة الشعب، وضعف نفسيته، ونمو الأثرة عنده، وكثرة الفساد فيه؛ فتفقد الأمة بذلك أكبر مصادر قُواها وتماسكها"[٢].

وبالجملة، ليس هنالك من فسادٍ خلقي أو عملي إلا كانت نشأته من هؤلاء المُترفين. إنهم أساءوا استعمالَ ما آتاهم الله من النِّعم؛ فضلُّوا وأضلُّوا[٣].

هذا، وقد اخترتُ من أشهر القصص التي سَاقَهَا القرآن الكريم مَثَلًا على مصارع المُتْرَفين وعواقب الكافرين بنعم رب العالمين، وظلَّت بيانًا على ما حاق بالأمم المُترفة وما أدَّى بهم ترفُهم إليه من عواقب وخيمة، وناطقةً بما جَرَّهُ من ويلات عليهم؛ قصة قوم سبأ، تلك الحضارة العظيمة التي قامت في اليمن، ذات مجدٍ عظيم وعزٍّ تليد، ولكن بدَّدها الترف، وأهلكها الإعراض والكفر بالنعم.

والآيات الواردة في قصة سبأ صريحة أن مدينة سبأ كانت حاضرة زاهرة مستكملة الأدوات، وأن مُدُنَها زاخرة بالأشجار عامرة بالبساتين عن اليمين والشمال، وكان أهلها مَهَرة في العمارة والنحت، يدل على ذلك: ما خلّفوه من سدود وقصور وحصون ومدائن ومعابد، وحياض لخزن المياه، وعرفوا التجارة والزراعة فزرعوا السهول المنبسطة وسفوح الجبال، وعُنُوا بمسائل الري عناية خاصة، وكانت سبأ كلها أعجوبة من أعاجيب الزمان التي

(١) الخطايا في نظر الإسلام: عفيف طبارة، صـ١٥٨.

(٢) المرجع السابق، صـ١٥٨.

(٣) ينظر: نحن والحضارة الغربية: أبو الأعلى المودودي، صـ١٨٧.

لم يَجُد بها الدهرُ إلا قليلًا[١].

ويشـهد التاريخ أن شـعوب الحضـارات اليمنية القديمة كانت من أسـبق الأمم إلى بناء السدود وحصر المياه والانتفاع بها، ومن البداهة أن إقامة هذه المنجزات الحضارية لا تكون إلا بفكر راقٍ، ولا تُنْتَجُ إلا بمعرفة علوم هندسـية، وعلوم عمران، ومعارف غزيرة بشـئون الحياة، وما أقام السـبئيون سـد مأرب –وهو حائط ضـخم به منافذ يتسـرب منها الماء إلى الجنتين عن يمين وشـمال- حتى بلغوا في معرفة علوم العمران مبلغًا عظيمًا تجاوزوا فيه غيرهم[٢].

"ومن نعم الله ولطفه بالناس عمومًا، وبالعرب خصـوصًـا، أنه قصَّ في القرآن أخبار المُهْلَكين والمُعاقَبين، ممن كان يُجَاوِرُ العربَ، وَيُشَاهِدُ آثَارَهُ، وَيَتَنَاقَلُ الناسُ أخبارَه؛ ليكون ذلك أَدْعَى إلى التصديق، وأقرب للموعظة"[٣].

ويلفت الإمامُ البقاعيُّ نَظَرَنا إلى أن "لكلٍّ من الماضـين مثلٌ يتكرر في هذه الأمة الخاتمة... فما صَـدَّ أكثرَ هذه الأمة عن فهم القرآن؛ ظنُّهم أنَّ الذي فيه مِن قَصَـص الأوَّلين وأخبار المُثَابين والمُعَاقَبين مِن أهل الأديان أجمعين؛ أنَّ ذلك إنما مقصوده الإخبار والقَصص فقط، كُلًّا، وليس كذلك؛ إنما مقصـودُه الاعتبار والتنبيه لمُشـاهدة متكررة في هذه الأمة من نظائر جميع أولئك الأعداد، وتلك الأحوال والآثار[٤].

---

(١) ينظر: قيم حضارية: توفيق محمد سبع ، صـ١٩٥، ١٩٦. سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها: محمد هيشور، صـ٢٤١.

(٢) ينظر: قيم حضارية، صـ٢٠٣، ٢٠٤. سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، صـ٢٤١.

(٣) تيسير الكريم الرحمن: السعدي، صـ٦٧٧.

(٤) نظم الدرر، ٨/ ٥٢٤، ٥٢٥.

وترجع أهمية هذا الموضوع وأسباب اختياره إلى ما يأتي:

١- كون القرآن الكريم أوثق مصدر تاريخي فيما حَوَاهُ من أخبارٍ عن حضارات الأمم السابقة؛ فهو كما وصفه الله ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(١).

٢- الإسهام في خدمة كتاب الله ﷻ، وخاصة القصص القرآني، وهو جانب من جوانب عظمة القرآن، ورفعته وروعته، ووجه من وجوه إعجازه وبلاغته.

٣- أهمية دراسة القصص القرآني، واستجلاء أنواره، واستخلاص أسراره، واستنباط ما فيه من دروس وعِبَر.

٤- شغفي بالقصص القرآني عمومًا، والأثر العظيم لقصة سبأ في نفسي خصوصًا؛ فهي حضارة من الحضارات التي يعرض القرآن لوصفها وصفًا رائعًا يفيض بالروعة والجمال.

٥- محاولة ربط كلام الله -تعالى- بالواقع المُعَاش، وبخاصة في تلك الفترة التي أخذ الغزو الثقافي فيها يعمل عَمَلَهُ في عقول الشباب بما يُصوِّر لهم من حضارة الغرب، ويُزيِّن من ثقافته؛ فانغمس كثير من شباب الأمة في شهوات الدنيا وملذاتها، والانبهار بكل ما هو غربي، ومحاولة استنساخه في المجتمع الإسلامي، مع إغفال الجانب الروحي، وبعض ذلك خليقٌ أن يعصف بالقِيَم في أمتنا الإسلامية.

٦- خطورة الترف بصفته سببًا من أسباب حصول النِّقَم ونزول العذاب على الأفراد والمجتمعات، وانتشار هذه الظاهرة في أي أمة يؤدي حتمًا إلى انهيارها وسقوطها.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

أهداف البحث:

١- بيان مفهوم التَّرف، وذِكر مواضع وُرُودِهِ في القرآن الكريم.

٢- إبراز مفاســد الترف، والوقوف على خطورته وعواقبه على الفرد والمجتمع من خلال عرض قصة سبأ كأنموذج تطبيقي من القصص القرآني.

٣- محاولة الكشـف عن سـنة من سـنن الله في إهلاك الأمم والحضـارات، وإثبات أن التَّرَف أهمُّ سـنن الله المُطَّردة في إهلاك الأمم، والسـبب الرئيس في سـقوط الحضـارات وهلاك المجتمعات.

٤- استخلاص ما في قصة سبأ من دروسٍ وعِبَرٍ، وأخذ العبرة والعظة بما آل إليه مصير الأمم المُترَفة الجاحدة لنعم الله. قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾(١).

الدراسات السابقة: هناك دراسات عديدة حول موضوع التَّرف والمُتَرفين في القرآن الكريم، وقد أَفَدتُّ كثيرًا منها في التأصيل لهذا الموضوع، لكنها -على حد علمي- لم تعالج ظاهرة الترف من خلال القصص القرآني عمومًا، ولا قصة سبأ خصوصًا، ومن أهم هذه الدراسات:

١- الترف وأثره في مصائر الأمم: محمد المجذوب، مجلة الوعي الإسلامي، العدد (١٥٠)، شهر يونيو ١٩٧٧م، صـ٢٣- ٣٠.

٢- نظرة القرآن الكريم إلى الترف والمترفين: مريم محمود حسن صالح، رسالة ماجستير بكلية الدعوة وأصول الدين- جامعة أم القرى، ١٩٨٧م.

٣- الترف وأثره في إفساد المجتمعات والأمم في ضوء القرآن الكريم: أحمد خليل مصطفى

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١١١.

البداد، رسالة ماجستير بكلية الدراسات العليا- جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية بالسودان، ١٩٩٨م.

٤- الآيات الواردة في هلاك الأمم دراسة موضوعية: عمر سلامة سليمان البرصان، رسالة ماجستير بكلية الدراسات الفقهية والقانونية- جامعة آل البيت بالأردن، ٢٠٠٢م.

٥- موقف المترفين من دعوة الرسل: حسين جابر موسى بني خالد، مجلة جامعة الملك سعود- العلوم التربوية والدراسات الإسلامية، المجلد (١٥)، العدد (١)، ٢٠٠٣م، صـ٤١٣- ٤٤١.

٦- الترف وذمه في القرآن الكريم: محمد بن حمد بن عبد الله المحيميد، مجلة العلوم الشرعية بجامعة القصيم، المجلد (١)، العدد (١)، يناير ٢٠٠٨م، صـ٢١٧- ٢٥٠.

٧- الترف أسبابه، آثاره، مظاهره، بدائله- دراسة قرآنية موضوعية: عبد الله بن صالح بن عبد الله الخضيري، مجلة القراءة والمعرفة بكلية التربية- جامعة عين شمس، العدد (١٠٤)، يونيو ٢٠١٠م، صـ١٨٢- ٢٣٨.

٨- سنة الله في بطر النعمة وتغيرها في القرآن الكريم: شعبان رمضان محمود محمد مقلد، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، العدد (٤٤)، مارس ٢٠١٨م، صـ٧٤- ٨٨.

٩- المترفون وصناعة الفساد من منظور قرآني: صبحي رشيد حسن اليازجي، مجلة البحوث والدراسات الشرعية، المجلد (٨)، العدد (٧٧)، يوليو ٢٠١٨م، صـ٧- ٤٠.

١٠- الترف والفساد وأثرهما على الفرد والمجتمع وسبل دفعهما من خلال السنة النبوية: أبوبكر إسماعيل أحمد عبد الله، مجلة مركز بحوث القرآن الكريم والسنة النبوية، العدد (٦)، ٢٠١٩م، صـ١٥٩- ٢٢٨.

١١- حديث القرآن عن الترف والمترفين: أحمد سالم محمد باطاهر، مجلة جامعة حضرموت للعلوم الإنسانية، المجلد (١٦)، العدد (٢)، ديسمبر ٢٠١٩م، صـ٢٨١-٣٠٤.

خطة البحث:

فقد جاءت -بعد المقدمة- في مبحثين، وخاتمة، وفهارس. وبيانها كالآتي:

المبحث الأول: التعريف بمفهوم التَّرف والمصطلحات ذات الصلة، وذِكر مواضع وُرُودِهِ في القرآن، وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: التعريف بمفهوم التَّرف والمصطلحات ذات الصلة.
- المطلب الثاني: مواضع وُرُودِ التَّرف في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: قِصَّة سبأ أُنموذجٌ قرآنيٌّ لمفاسد التَّرف ومخاطره على المجتمعات. وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: الآيات القرآنية الواردة في قصة سبأ، ومناسبتها لما قبلها، وتفسيرها.
- المطلب الثاني: أهم الدروس والعِبَر المُستفادة من القِصَّة.

الخاتمة، وتشتمل على: أهم نتائج البحث ومقترحاته، ثم قائمة المصادر والمراجع، وفهرس المحتويات.

منهج البحث:

أما عن المنهج العام للبحث: فقد اعتمدتُّ المنهج الاستقرائي، والمنهج الوصفي التحليلي القائم على جمع الآيات وتدبُّرها وتتبُّع أقوال المفسرين، والاختيار منها، واستخلاص النتائج.

وأما عن إجراءات البحث:

فقد تتبَّعتُ الآيات التي تحدثت عن التَّرف وفق مواضع وروده في سور القرآن الكريم، وكذلك الآيات القرآنية الواردة في قصة سبأ، وحاولت تدبُّرها، ناظرًا في معانيها وسياقاتها، مُبرِزًا كثيرًا من أوجه المناسبة والصلة بين الآيات، ورجعتُ لكتب التفسير على تنوُّع اتجاهاتها، وأفدتُّ منها، وتحرَّيتُ الصحيح الثابت من الأحاديث والآثار، وابتعدتُّ -غالبًا- عن أكثر التفصيلات التي لم ترد في القرآن والسنة، وقمتُ بدفع ما يوهم ظاهره التعارض مستعينًا بالمراجع المتخصصة في ذلك، واكتفيتُ من اللغة والقراءات بما له صلة بالمعنى وإبراز لجمال العبارة وثرائها، وحاولتُ قدر الإمكان-مُستبصرًا بتراث الأسلاف من أهل الفن- بيانَ مباحث البلاغة التي تنطوي عليها الآيات، وإبراز أهم الدروس والعِبَر المُستفادة من القِصَّة الكريمة.

وأخيرًا، فهذه محاولة مني متواضعة، أرجو أن تكون مفيدة مأجورة مع القصص القرآني، توخيتُ فيها -قدر الإمكان- جِدَّة العرض، ويُسر الأسلوب، وحاولتُ فيها استخلاص أهم ما في قصة سبأ من دروس وعبر، وراعيتُ فيها أن تجمع بين الطريقتين: التحليلية والموضوعية، راجيًا الله ﷻ أن ينفع بهذا البحث كاتبَه، وقارئَه، والناظرَ فيه، وأن يرينَا الحق حقًّا ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلًا ويرزقنا اجتنابه، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم.

المبحث الأول

التعريف بمفهوم التَّرف والمصطلحات ذات الصلة ،وذِكر مواضع وُرُودِ التَّرف في القرآن

المطلب الأول: التعريف بمفهوم التَّرف والمصطلحات ذات الصِّلة.

أولًا: التعريف بمفهوم التَّرف:

جاء في لسان العرب: "التَّرَفُ: التَّنَعُّمُ، والتُّرْفةُ النّعْمةُ، ... وصبيٌّ مُتْرَفٌ إِذَا كَانَ مُنَعَّمَ البدنِ مُدَلَّلًا، والمُتْرَفُ: الَّذِي قَدْ أَبْطَرَتْه النّعمةُ وسَعة العيْشِ. وأَتْرَفَتْه النَّعْمةُ؛ أَي: أَطْغَتْه... والمُتْرَفُ: المُتَنَعِّمُ المُتَوَسِّعُ فِي مَلاذِّ الدُّنْيَا وشَهواتِها... وَرَجُلٌ مُتْرَفٌ ومُتَرَّفٌ: مُوَسَّعٌ عَلَيْهِ. وتَرَّفَ الرجلَ وأَتْرَفَه: دَلَّلَه ومَلَّكَه..."[١].

وقد جاء مفهوم التَّرف عند المُفسِّرين مُطابقًا لهذه المعاني اللغوية؛ فقد عرَّفه الراغب الأصفهاني بأنه :"التوسُّع في النعمة"[٢]. والمُتْرَفُ- اسْمُ مَفْعُولٍ- هو: المَتْرُوكُ يَصْنَعُ مَا يَشَاءُ لَا يُمْنَعُ مِنْهُ، وإِنَّمَا سُمِّيَ الْمُتَنَعِّمُ المُتَوَسِّع فِي مَلاَذِّ الدُّنْيَا وشَهَواتِهَا مُتْرَفًا؛ لأَنَّه مُطْلَقٌ لَهُ، لَا يُمْنَعُ مِن تَنَعُّمِهِ[٣]. وقال ابن عطية: "والمُترَف: المُنعَّم الذي شغلته تُرْفَتُه عن الحق حتى هَلَك"[٤].

وبهذا يظهر أن مادة "تَ رِ فَ" وما تصرَّف منها تدور حول معانٍ: التنعُّم ولين العيش، والتوسُّع في ملاذِّ الدنيا وشهواتها، والاشتغال بها وإيثارها على الآخرة، وبطر النعمة وعدم استعمالها في طاعة الله ﷻ.

---

(١) لسان العرب: ابن منظور، (ت ر ف).

(٢) المفردات في غريب القرآن، (ت ر ف).

(٣) ينظر: تهذيب اللغة: الأزهري. تاج العروس: الزَّبيدي، (ت ر ف).

(٤) المحرر الوجيز، ٣/ ٢١٤.

ثانيًا: تعريف المصطلحات ذات الصِّلة بمفهوم الترف:

تعددت المصطلحات التي تستخدم للدلالة على مفهوم التَّرف، وفيما يأتي تعريف بأبرز هذه المصطلحات:

١- البَطَر

البَطَر لُغةً: البَطَرُ: الأشَرُ، وهو شِدَّة المَرَحِ، وقيل: التَّبَختُرُ، وقيل: قِلَّة احتِمالِ النِّعمةِ، وقيل: البَطَرُ: الدَّهَشُ والحَيرةُ. وهو الأشَرُ وغَمطُ النِّعمةِ، وأبطَره، أي: أدهَشَه، وقيل: البَطَرُ: الطُّغيانُ في النِّعمةِ، وقيل: هو كَراهةُ الشَّيءِ من غَيرِ أن يَستَحِقَّ الكَراهيةَ، يُقالُ: بَطِر بَطَرًا فهو بَطِرٌ[١].

البَطَر اصطلاحًا:

قال الراغب الأصفهاني: "البَطَرُ: دَهَشٌ يَعتَري الإنسانَ من سوءِ احتِمالِ النِّعمةِ وقِلَّة القيامِ بحَقِّها، وصَرفِها إلى غَيرِ وَجهِها"[٢].

وقيل: البَطَرُ: الطُّغيانُ في النِّعمةِ وتَركُ شُكرِها[٣].

وقال صاحب الكشاف: "البَطَرُ: سوءُ احتِمالِ الغِنى، وهو ألَّا يَحفظَ حَقَّ اللهِ فيه"[٤].

الصلة بين الترف، والبطر:

العلاقة بين التَّرف والبَطَر علاقة وثيقة مترابطة، فالإنسان إذا كان مُترفًا متوسعًا في ملاذ الدنيا وشهواتها؛ قد يصل به الحال إلى الطغيان في النِّعم، وعدم مقابلتها بالشكر، وبهذا يتبين أن التَّرف سبب رئيس من أسباب البطر.

---

(١) ينظر: الصحاح: الجوهري. لسان العرب: ابن منظور، (ب ط ر).

(٢) المفردات في غريب القرآن، (ب ط ر).

(٣) ينظر: معالم التنزيل: البغوي، ٣/ ٣٦٥.

(٤) الكشاف: الزمخشري، ٣/ ٤٢٣.

٢- الإسراف.

الإسراف لغة: لفظ الإسراف مأخوذ من "السَّرف"، وهو في أصله اللغوي يدل على مجاوزة الحد.

قال ابن فارس: "السِّينُ وَالرَّاءُ وَالْفَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى تَعَدِّي الْحَدِّ وَالْإِغْفَالِ أَيْضًا لِلشَّيْءِ. تَقُولُ: فِي الْأَمْرِ سَرَفٌ، أَيْ مُجَاوَزَةُ الْقَدْرِ"(١).

الإسراف اصطلاحًا:

ذكر الجرجاني أن الإسراف: هو إنفاق المال الكثير في الغرض الخسيس. وقيل: تجاوز الحد في النفقة، وقيل: أن يأكل الرجل ما لا يحل له، أو يأكل مما يحل له فوق الاعتدال، ومقدار الحاجة. وقيل: الإسراف تجاوز في الكمية، فهو جهل بمقادير الحقوق. وقيل: صرف الشيء فيما ينبغي زائدًا على ما ينبغي؛ بخلاف التبذير؛ فإنه صرف الشيء فيما لا ينبغي"(٢).

وقال الراغب الأصفهاني في تعريفه: "السَّرَفُ: تجاوز الحدّ في كلّ فعل يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أَشْهَر"(٣).

وقال الطاهر ابن عاشور: "الإسراف: الْإِفْرَاطُ وَالْإِكْثَارُ فِي شَيْءٍ غَيْرِ مَحْمُودٍ"(٤).

الصلة بين الإسراف والترف:

الإســراف والترف كلاهما من الأخلاقِ التي يلزَمُ الانتهاءُ عنها، والعلاقة بينهما علاقة وثيقة، فالسَّرف يُعَدّ أوّل طريق الترف وأولى لبناته، والإسراف يجرّ حتمًا إلى الترف.

وفي ذلك يقول ابن عاشور: "والإسرافُ إذا اعتاده المرءُ حمَلَه على التَّوسُّعِ في تحصيلِ المرغوباتِ، فيرتَكِبُ لذلك مذَمَّاتٍ كثيرةً، وينتَقِلُ من مَلذَّةٍ إلى مَلذَّةٍ، فلا يَقِفُ عِندَ حَدٍّ"(٥).

---

(١) مقاييس اللغة، (س ر ف).

(٢) التعريفات، صـ٢٣، ٢٤.

(٣) المفردات في غريب القرآن، (س ر ف).

(٤) التحرير والتنوير، ١١/ ١١٢.

(٥) التحرير والتنوير، ٨/ ١٢٣.

ويمكن أن نفرق بين الإسراف، والترف بأمرين:

أحدهما: أن الإسراف عام في كل شيء، في النعمة، وغيرها، أما الترف فهو مرتبط بالنعمة فقط.

وثانيهما: أن الإسراف قد يكون معه بطر وكفر بالنعمة، وقد لا يكون، أما الترف فيكون معه بطر وكفر بالنعمة[١].

٣- التبذير.

التبذير لغةً: التَّبذيرُ: التَّفريقُ، مَصدَرُ بَذَّر تبذيرًا، وأصلُه: إلقاءُ البَذْرِ وطَرحُه، فاستُعيرَ لكُلِّ مُضَيِّعٍ لمالِه، وبَذَّر مالَه: أفسَدَه وأنفَقَه في السَّرَفِ. وكُلُّ ما فَرَّقْتَه وأفسَدْتَه فقد بذَّرْتَه، والمباذِرُ والمُبَذِّرُ: المُسرِفُ في النَّفَقةِ، وأصلُ هذه المادَّةِ يدُلُّ على نَثرِ الشَّيءِ وتفريقِه[٢].

التبذير اصطلاحًا:

قال الشافعي: "التبذير: إنفاق المال في غير حقه"[٣]. وذكر الجرجاني أن التبذير: صرف الشيء فيما لا ينبغي[٤]، وقيل: "هو تفريق المال على وجه الإسراف"[٥].

الصلة بين التبذير والترف.

يمكن القول: إن الصلة بين التبذير والترف هي نفس الصلة بين مفهوم الإسراف والترف؛ فإن الترف يأتي في مرحلة تالية للإسراف والتبذير، وهو مترتب عليهما، ونتيجة لهما، والانغماس في التَّرف والملذات يبعث الإنسان -غالبًا- على التبذير، وإضاعة الأموال فيما لا ينبغي، أو لا حاجة له.

---

(١) ينظر: حديث القرآن عن الترف والمترفين: أحمد سالم باطاهر، صـ٢٨٥.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة: ابن فارس. المفردات: الراغب الأصفهاني. لسان العرب: ابن منظور، (بَ ذَ رَ).

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ١٠/ ٢٤٧.

(٤) التعريفات، صـ٢٣، ٢٤.

(٥) المرجع السابق، صـ٥١.

المطلب الثاني: مواضع وُرُودِ التَّرف في القرآن الكريم.

وَرَدَ الجذر (تَ رِ فَ) في القرآن الكريم في ثمانية مواضع[1]، وبيانها حسب ترتيب المصحف الشريف كالآتي:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾ أراد بالذين ظلموا: تاركي النهى عن المنكرات؛ أي: لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما اتَّبعوا فِي دنياهم ما عُوِّدوا من النعيم، وما عَرَفوا فيه التنعُّم والتترُّف من حُبِّ الرياسة والثروة، وطلب أسباب العيش الهنيء، ورفضوا ما وراء ذلك مما فيه صلاح دينهم، ونبذوه وراء ظهورهم[3].

والتعبير باتِّباع التَّرف في الآية الكريمة مَجَازٌ عن الْمُلَازَمَةِ وَالْمُعَاوَدَةِ؛ إذ التَّرف لا يصح اتِّباعه حقيقة، وإنما هو في هذا السياق إشارة إلى الاهتمام به، والِانْقِطاع له، وملازمته مُلَازَمَة التَّابِعِ مَتْبُوعَهُ[4].

يقول الشهاب الخفاجي: "وجَعَل اتِّباعه كناية عن الاهتمام به، وترك غيره لأنه دأب التابع للأمر"[5].

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ فيه وضع الظاهر موضع المضمر؛ فلم يَقُل:

---

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، صـ١٥٣.

(٢) سورة هود، الآية: ١١٦.

(٣) ينظر: معاني القرآن: الفراء، ٢/ ٣١. الكشاف: الزمخشري، ٢/ ٤٣٧. البحر المحيط: أبو حيان، ٥/ ٢٧١.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور، ٣/ ١٦١.

(٥) حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي، ٥/ ١٤٧.

"واتَّبع أولئك"، تنبيهًا على أن "سبب ترك النهي عن المنكر انهماكهم في الشهوات، واشتغالهم بحب الجاه والرئاسة، وأن ذلك ظُلمٌ عظيم يستأهل صاحبه النَّكال الشديد"[١].

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[٢].

يقول الصابوني: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾؛ أي: وإذا أردْنَا هلاكَ قومٍ من الأقوام أَمَرنا المُتنعِّمين فيها والقادة والرؤساء بالطاعة على لسان رُسلنا، فعصوا أمرنا وخرجوا عن طاعتنا وفسقُوا وفَجَرُوا ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾؛ أي: فَوَجَبَ عليهم العذاب بالفسق والطغيان فأهلكناهم إهلاكًا مُريعًا[٣]".

وقوله تعالى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ فيه تَخصيصُ المُتْرفينَ بالذِّكرِ مع تَوجُّهِ الأمْرِ إلى الكلِّ؛ لأنَّهم الأصولُ في الخطابِ، والباقي أتباعٌ لهم، ولأنَّ توجُّهَ الأمْرِ إليهم آكَدُ[٤]، فقُيِّدُ الأمْرُ بالمُتْرفينَ، وإنْ كان الأمرُ لا يختَصُّ بهم؛ لأنَّ صلاحَهم أو فسادَهم مُستلزِمٌ لصلاحِ غيرِهم أو فسادِه[٥]، ولأنَّهم أحَقُّ النَّاسِ بالشُّكرِ، وأولَى بالانتِقامِ عندَ الكُفرِ[٦]، وكذلك لأنَّهم أسرَعُ إلى الحَماقةِ، وأقدَرُ على الفُجورِ[٧].

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف، ٨/ ٢٣٠. وينظر: إرشاد العقل السليم: أبو السعود، ٤/ ٢٤٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

(٣) صفوة التفاسير، ٢/ ١٤٢. ومُريع بمعنى مُفزعٍ، من رَاعَه أمر كذا؛ أي: بلغ الرَّوْعُ منه رُوعَه. والرَّوع: الفزع. ينظر: تهذيب اللغة للأزهري، (رَ وَ عَ).

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم: أبوالسعود، ٥/ ١٦٢، ١٦٣.

(٥) يُنظر: فتح الرحمن: زكريا الأنصاري، ١/ ٣٢١.

(٦) ينظر: نظم الدرر: البقاعي، ١١/ ٣٩١.

(٧) ينظر: أنوار التنزيل: البيضاوي، ٣/ ٢٥١.

قال الطاهر ابن عاشـور: "وَتَعْلِيقُ الْأَمْرِ بِخُصُـوصِ الْمُتْرَفِينَ مَعَ أَنَّ الرُّسُـلَ يُخَاطِبُونَ جَمِيعَ النَّاسِ، لِأَنَّ عِصْيَانَهُمُ الْأَمْرَ الْمُوَجَّهَ إِلَيْهِمْ هُوَ سَبَبُ فِسْقِهِمْ وَفسق بَقِيَّة قَومهمْ إِذْ هُمْ قَادَةُ الْعَامَّةِ وَزُعَمَاءُ الْكُفْرِ فَالْخِطَابُ فِي الْأَكْثَرِ يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِمْ، فَإِذَا فَسَـقُوا عَنِ الْأَمْرِ اتَّبَعَهُمُ الدَّهْمَاءُ[1] فَعَمَّ الْفِسْقُ أَوْ غَلَبَ عَلَى الْقَرْيَةِ فَاسْتَحَقَّتِ الْهَلَاكَ"[2].

وهو كقولـه تعـالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾[3]، وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[4] وحكى الله عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾[5]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقد ورد في قوله تعالى: ﴿أَمَرْنَا﴾ قراءتان متواترتان، الأولى: بقصـر الهمزة ﴿أَمَرْنَا﴾، وهي قراءة الجمهور، والثانية: بِمَدِّ الْهَمْزَةِ {آمَرْنَا}، وهي قراءة الإمام يَعْقُوب[6].

فأما قراءة الجمهور فهي من الأمر ضد النهي، والمعنى: أَمَرْنَا أهلَها بالطاعة ففسقوا. أو يكون ﴿أَمَرْنَا﴾ بمعنى: كَثَّرْنَا، والعرب تقول للشيء الكثير: أمِرَ لكثرته، فأما إذا وصف القوم بأنهم كَثُروا، فإنه يقال: أَمِرَ بنو فلان، وأَمِرَ القوم يأمرون أمرًا، وذلك إذا كثروا وعَظُم أمرُهم، والله آمرَهم أي: كثّرهم وبارك فيهم[7]. وهذا الوجه يوافق قراءة الإمام يعقوب.

---

(١) الدَّهْماءُ: الْعَدَدُ الْكَثِيرُ. ودَهْماءُ النَّاسِ: جَمَاعَتُهُمْ وَكَثْرَتُهُمْ. ينظر: لسان العرب: ابن منظور، (دَ هَ مَ).

(٢) التحرير والتنوير، ١٥/ ٥٥.

(٣) سورة الأنعام، من الآية: ١٢٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٦٦.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٦٧.

(٦) ينظر: النشر: ابن الجزري، ٢/ ٣٠٦. إتحاف فضلاء البشر: البنا الدمياطي، صـ٣٥٦.

(٧) ينظر: جامع البيان: الطبري، ١٧/ ٤٠٥، ٤٠٦. الحجة: ابن خالويه، صـ٢١٤. تهذيب اللغة: الأزهري، (أ م ر).

والكثرة ههنا يصلح أن يكون في شيئين، أحدهما: أن يكثر عدد المترفين، والآخر: أن تكثر حُرُوثُهم وأموالهم[١].

وذكر الطاهر ابن عاشور وجهًا آخر على هذه القراءة؛ وهو: أَيْ جَعَلْنَاهُمْ آمِرِينَ؛ أَيْ: دَاعِينَ قَوْمَهُمْ إِلَى الضَّلَالَةِ، وَالْمُفَاعَلَةُ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي الْمُبَالَغَةِ، مِثْلُ عَافَاهُ اللهُ[٢].

يقول أبومنصور الأزهري -ما ملخصه-: "مَنْ قَرَأَ ﴿أَمَرْنَا﴾ مقصورًا فله وجهان: أحدهما: أمرناهم بالطاعة ففسقوا فحق عليهم العذاب، وهو كقولك: أمرتُك فعَصيْتنِي، فقد عُلِم أن المعصية مخالفةُ الأمرِ، وكذلك الفسق: الخروج عن أمْرِ الله، والوجه الثاني في ﴿أَمَرْنَا﴾ أنهُ بمعنى: كثَّرنا مترفيها، يقال: آمَرهم الله، وأمَرَهم؛ أي: كثَّرهم،... ويقال: أمِرَ بنو فلانٍ يأمُرُون: إذا كثُرُوا،... ومن قَرأ {آمَرْنَا} بالمد فلا مَعْنَى له إلا أَكْثَرْنَا..."[٣].

والحاصل: لا تعارض بين القراءتين في المعنى، فقد أفادت القراءتان أنَّ فِسْقَ المترفين وخروجهم عن طاعة الله، وكثرة عددهم في أي أمة سبب لاستحقاق هلاك الجميع، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾[٤]، ومثله قول زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ لَمَّا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبْ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلَ هَذِهِ) -وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا- قَالَتْ لَهُ: يَا رَسُولَ

(١) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: الزجاج، ٣/ ٢٣٢. معاني القراءات: أبو منصور الأزهري، ٢/ ٩٠.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ١٥/ ٥٥.

(٣) معاني القراءات، ٢/ ٩٠.

(٤) سورة الأنفال، من الآية: ٢٥.

اللهِ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: (نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ)[1].

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾[2].

بعد أن بيَّن ﷻ هلاكَ أهل القُرى التي كفرت بالله وكذَّبت رسلَه، وأنه يُنشِىء بعد هلاكها قَوْمًا آخَرِينَ خيرًا منهم، ثم صوَّر حالهم عندما تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة، فقال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝١١ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾[3]؛ أتبعه بما نُودوا به على سبيل التهكم والسخرية ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾[4]؛ أي: "لَا تَرْكُضُوا هَارِبِينَ مِنْ نُزُولِ الْعَذَابِ، وَارْجِعُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالسُّرُورِ، وَالْمَعِيشَةِ وَالْمَسَاكِنِ الطَّيِّبَةِ"[5].

وقال القرطبي: "﴿وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أَيْ إِلَى نِعَمِكُمُ الَّتِي كَانَتْ سَبَبَ بَطَرِكُمْ"[6].

وعن سرِّ التعبير القرآني بالبناء للمفعول في قوله تعالى: ﴿أُتْرِفْتُمْ﴾ يقول البقاعي: "ولَمَّا كان التَّأسيفُ إنَّما هو على العَيشِ الرَّافِهِ، لا على كَونِه مِن مُعطٍ مُعَيَّنٍ، بُنِيَ للمفعولِ قَولُه:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، باب قِصَّةِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، (٣٣٤٦). ومسلم- واللفظ له-، كتاب الفتن، باب: اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، (٢٨٨٠).

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٣.

(٣) السورة السابقة، آيتا: ١١، ١٢.

(٤) السورة السابقة ، الآية: ١٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ٥/ ٣٣٥.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، ١١/ ٢٧٥.

﴿أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ أي منها. ويجوزُ أن يكونَ بُنِيَ للمجهولِ؛ إشارةً إلى غَفْلَتِهم عن العِلمِ لِمَن أترَفَهم، أو إلى أنَّهم كانوا يَنسبُونَ نِعمَتَهم إلى قُواهم، ولو عَدُّوها منَ اللهِ لشَكَروه فنفَعَهُم"[١].

وفي معنى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ﴾ أقوالٌ: فقيل: المعنى: لعلَّكم تُسألونَ شَيئًا من دنياكم فَتُعْطُونَ مَنْ شِئْتُمْ وَتَمْنَعُونَ مَنْ شِئْتُمْ، فَإِنَّكُمْ أَهْلُ ثَرْوَةٍ وَنِعْمَةٍ؛ قيل لهم ذلك على جهة الاستهزاء بهم[٢]. وقيل: المعنى: لعلَّكم تُسألون عمَّا كنتم فيه مِن أداءِ شُكرِ النِّعمةِ[٣]. وقيل: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ﴾؛ أي: تُقصَدونَ للسُّؤالِ والتشاوُرِ والتدبير في المهمَّات، وهذا على طريقةِ التهَكُّم بهم والتوبيخِ لهم[٤].

قال صاحب الكشاف ما ملخصه: "قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ﴾ تهكمٌ بهم وتوبيخ، أي: ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم لعلَّكم تُسألون غدًا عما جَرَى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم، فتجيبوا السائل عن علمٍ ومشاهدة. أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم في مجالسكم، وتَرَتَّبُوا في مراتبكم[٥] حتى يسألكم عبيدكم وحشمكم، ومن تملكون أمره، وينفذ فيه أمركم

---

(١) نظم الدرر، ١٢/ ٣٩٥.

(٢) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: الزجاج، ٣/ ٣٨٦. التفسير البسيط: الواحدي، ١٥/ ٣٣. معالم التنزيل: البغوي، ٥/ ٣١٢. الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ١١/ ٢٧٥. وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قتادةُ. يُنظر: تفسير الطبري، ١٨/ ٤١٨.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ٥/ ٣٣٥.

(٤) ينظر: فتح القدير: الشوكاني، ٣/ ٤٧٣.

(٥) أي: تمكنوا فيها. رتب الشيء: ثبت ودام. ينظر: أساس البلاغة: الزمخشري، (رَ تَ بَ). حاشية الطيبي على الكشاف، ١٠/ ٣٠٣.

ونهيكم، ويقول لكم: بم تأمرون؟ وبماذا ترسمون؟وكيف نأتي ونذر كعادة المُنعَّمين المُخَدَّمين؟. أو يسألكم الناس في أنديتكم... ويستشيرونكم في المهمات...، ويستضيئون بآرائكم. أو يسألكم الوافدون عليكم...، ويستمطرون سحائب أكُفّكم... قيل لهم ذلك تهكمًا إلى تهكم، وتوبيخًا إلى توبيخ[1]".

الموضع الرابع: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأٓخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾[2].

جاءت الآية الكريمة في سياق إخبار الله- تَعَالَى- أَنَّهُ أَنْشَأ بعد إهلاك قَوْمِ نُوحٍ قَرْنًا آخَرِينَ[3]، وأَنَّهُ- تَعَالَى- أَرْسَلَ في أهل هذا الزمان الواحد رَسُولًا منهم، ونشأ بين أظهرهم، ويعرفون حَسَبَه ونَسَبَه، فَدَعَاهُمْ إِلَى عبادة الله وحده لا شريك له؛ فاستنكفوا عن اتِّباعه لكونه بشرًا.

ومعنى الآية: وقال الرُّؤساءُ والأشرافُ والسادةُ مِن قَومِ هذا الرسولِ، الَّذين كَفَروا باللهِ، وكذَّبوا بالبَعثِ والحساب، ونعَّمْناهم ووَسَّعْنا عليهم الرِّزقَ في الحَياةِ الدُّنيا حتَّى بَطِروا وطَغَوا: ما هذا الرَّسولُ إلَّا إنسانٌ مِثلُكم، يأكُلُ مِمَّا تأكُلونَ مِنَ الطَّعامِ، ويَشرَبُ مِمَّا تَشرَبونَ مِنَ الشَّرابِ، وليس رسولًا كما يَزعُمُ[4].

يقول البقاعي: "ولما بيَّنَ ﷺ تكذيبَهم وما عَذَّبَهم به، وكان القياسُ مُوجِبًا أنَّ من يأتي بعدهم يَخْشَى مثل مَصرَعِهم، فيَسلُكُ غير سبيلهم، ويقول غير قِيلِهِم، بيَّن أنه لم تنفعهم

---

(١) الكشاف، ٣/ ١٠٦.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٣٣.

(٣) قِيلَ: الْمُرَادُ بِهِمْ عَادٌ قوم هود ﷺ- وهو اتجاه أكثر المفسِّرين- وَقِيلَ: الْمُرَادُ بهم ثَمُودُ قوم صالح ﷺ.

(٤) ينظر: جامع البيان: الطبري، ١٩/ ٢٨، ٢٩. الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ١٢/ ١٢١.

العبرة، فارتكبوا مثل أحوالهم، وزادوا على أقوالهم وأفعالهم، لإرادة ذلك من الفاعل المختار، الواحد القهار، وأيضًا فإنه لما كان المقصود - مع التهديد والدلالة على القدرة والاختيار- الدلالة على تخصيص المؤمنين بالفلاح والبقاء بعد الأعداء، وكان إهْلاكُ المُتْرفينَ أدَلَّ على ذلك؛ اقْتَصَرَ على ذِكْرِهم، وأبْهَمَهم؛ لِيَصِحَّ تَنزيلُ قِصَّتِهم على كلِّ مَن ادُّعِي فيهم الإترافُ مِن الكَفرةِ[١]".

ونظائر الآيات الدالة على قولهم مثل ما ذُكِر عنهم في هذه الآية الكريمة كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾[٢]، وقوله: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ...﴾[٣]، وقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ۝٢٣ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾[٤]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾[٥] إلى غير ذلك من الآيات.

والمتدبر للآية الكريمة -في هذا الموضع- يلحظ أن هؤلاء الملأ وُصِفُوا بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ ذَمًّا لهم، وتَنبيهًا على غُلُوِّهم في الكُفْرِ[٦]، وبقوله: ﴿وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وفي هَذينِ الوَصفينِ إشارةٌ إلى أنَّهما الباعِثُ على تَكذيبِهم رَسولَهم؛ لأنَّ تَكذيبَهم بلِقاءِ الآخرةِ يَنْفِي عنهم تَوقُّعَ المُؤاخَذةِ بعْدَ الموتِ، وثَروتهم ونِعْمتهم تُغْرِيهم

(١) نظم الدرر، ١٣/ ١٣٥، ١٣٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٤.

(٣) سورة الفرقان، من الآية: ٧.

(٤) سورة القمر، آيتا: ٢٣، ٢٤.

(٥) سورة التغابن، من الآية: ٦.

(٦) ينظر: إرشاد العقل السليم: أبوالسعود، ٦/ ١٣٣.

بالكِبْرِ والصَّـلَفِ؛ إذ أَلِفُوا أنْ يَكونوا سـادةً لا تَبَعًا[1]؛ ولذا آثروا التعبير بـــ ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ على (مِثْلِنَا)؛ للمُبالَغةِ في تَهوينِ أمْرِه ﷺ وتَوهينِه[2]، وهو كِنايةٌ عن تَكذيبِه في دَعْوى الرِّسـالةِ؛ لِتَوهُّمِهم أنَّ البشريَّةَ تُنافِي أنْ يكونَ صاحِبُها رسولًا مِن اللهِ، فأتَوْا بالملزومِ وأرادوا لَازِمَه[3].

والمتأمل في الآية الكريمة -أيضًـا- يجد أن قولَ قوم هودٍ جاء في جوابه هنا بالواو: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦ﴾، وفي سـورة "الأعـراف"، وسـورة "هـود" ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾[4]، ﴿قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾[5] بغَيرِ واوٍ، وقد أجاب العلماء عن ذلك بأوجُهٍ متعددة تكشف عن روعة النظم القرآني كالآتي:

الأول: أَنَّ الفَرق بَينهما: أنَّ الَّذي بغَيرِ واوٍ على تَقْديرِ سُؤالِ سائلٍ قال: فما قال قَومُه؟ فقيل له: قالوا: كَيتَ وكَيتَ. وأمَّا الَّذي مع الواوِ، فعَطْفٌ لِمَا قالوهُ على ما قالَهُ، ومعناه: أنَّه اجتمَعَ في الحُصولِ هذا الحَقُّ وهذا الباطِلُ، وشتَّانَ ما هما![6].

وهذا توجيه جيد مقبول، وقريب منه ما ذكره البيضـاوي إذ يقول: "لعله ذكر بالواو؛ لأنَّ كلامهم لم يتَّصِـل بكلام الرسـول ﷺ، بخلاف قول قوم نوح حيث اسـتُؤنف به، فعلى تقدير سؤال"[7].

وما ذكره البيضـاوي أورده- أيضًـا- أبو السُّـعود، وحاصـل كلامه: "﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ١٨/ ٥٢.
(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: أبوالسعود، ٦/ ١٣٣.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير، ١٨/ ٥٢.
(٤) سورة الأعراف، من الآية: ٦٦.
(٥) سورة هود، من الآية: ٥٣.
(٦) ينظر: الكشاف: الزمخشري، ٣/ ١٨٦. أنوار التنزيل: البيضاوي، ٤/ ٨٧. حاشية الطيبي على الكشاف، ١٠/ ٥٧٨. البحر المحيط: أبو حيان، ٦/ ٣٧٣. وقوله: "وشَتَّانَ ما هما"؛ أي: بَعُدَ ما بينهما. ينظر: الصحاح: الجوهري، (شَ تَ تَ).
(٧) أنوار التنزيل، ٤/ ٨٧.

قَوْمِهِ﴾ حكايةٌ لقولهم الباطل إثرَ حكاية القول الحقِّ الذي ينطق به حكايةُ إرسال الرَّسولِ بطريق العطفِ، على أنَّ المُرادَ حِكايةُ مُطْلَقِ تَكذيبِهم له ﷺ إجْمالًا، لا حِكايةُ ما جَرى بينَه ﷺ وبَينَهم مِن المُحاوَرةِ والمُقاوَلةِ تَفْصيلًا، حتَّى يُحْكَى بطَريقِ الاستِئنافِ المَبْنيِّ على السُّؤالِ، كما يُنبِئُ عنه ما سَيَأْتي من حِكايةِ سائرِ الأُممِ"[1].

الثاني: ومَفَاده أنَّ سببَ الاختلافِ بينَ الآياتِ: أنَّ هُودًا مكَثَ بيْن القومِ أزمنةً مُتطاوِلةً، وله معهم مَقالاتٌ ومُجادلاتٌ في مَقاماتٍ شَتَّى، وذلك يُوجِبُ اختلافَ العِباراتِ؛ فإنَّ لكلِّ قَومٍ مَقالًا، فكان كلامُه في سُورةِ (هُودٍ) أبسَطَ مِن هَذينِ المَوضعينِ؛ لأنَّه قد أظهَرَ فيه النَّصيحةَ التَّامَّةَ، وضَمَّ مع الأمْرِ بالعِبادةِ الأمْرَ بالاستغفارِ والتَّوبةِ، ووعَدَهم بذلك البركاتِ والخيراتِ، وكان ذلك مَظِنَّةً لِبَعثِ السَّامعِ وتَحرُّكِه على السُّؤالِ: فما كان جَوابُ القومِ عنه بعْدَ تلك النَّصيحةِ البالغةِ؟ أمَّا في (الأعرافِ) وإنْ لم يُبْسَطْ ذلك البسْطَ، لكنْ ذُكِرَ فيه اسمُ هُودٍ بعْدَ التَّوطئةِ بقوله: ﴿أَخَاهُمْ﴾[2]؛ فدَلَّ على إضمارِ النُّصحِ، بل أهَمَّ وأبلَغَ مِن ذلك؛ فإنَّ الأُخُوَّةَ مَئِنَّةٌ لكلِّ حَدْبٍ[3] ومَرْحمةٍ، ألا تَرى كيف مَنَّ اللهُ تعالى على قُريشٍ بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[4]؟ بخِلافِه هاهنا، بل طَوى اسمَهُ أيضًا، والقومُ ما الْتَفَتوا إليه وإلى

(١) إرشاد العقل السليم، ٦/ ١٣٣.

(٢) سورة الأعراف، من الآية: ٦٥.

(٣) حَدِبَ فلانٌ على فلانٍ يَحْدَبُ حَدَبًا إذا عطَف وحَنَا عليه. ينظر: تهذيب اللغة، (حَ دِ بَ).

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

كلامِه، وما أجابوا، بلْ كانت تلك المَقالةُ دَنْدَنةً[1] فيما بيْنهم[2].

الثالث: ذهب الطاهر ابن عاشــور إلى أن وَجْهَ ذلك: أنَّ كَلامَ الملَأِ المَحْكِيَّ هنا غيرُ كَلامِهم المَحْكِيِّ في السُّــورتينِ؛ لأنَّ ما هنا كَلامُهم المُوجَّهُ إلى خِطابِ قَومِهم، إذ قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾؛ خَشيةً منهم أنْ تُؤثِّرَ دَعوةُ رَسولِهم في عامَّتِهم، فرأَوُا الاعتناءَ بأنْ يَحُولوا دونَ تأثُّرِ نُفوسِ قَومِهم بدَعوةِ رَســولِهم أوْلى مِن أنْ يُجاوِبوا رَســولَهم، وإنَّما لم يُعطَفْ قَولُ الملَأِ بفاءِ التَّعقيبِ، كما ورَدَ في قِصَّــةِ نُوحٍ آنفًا؛ لأنَّ قَولَهم هذا كان مُتأخِّرًا عن وَقْتِ مَقالةِ رَســولِهم الَّتي هي فاتحةُ دَعوتِه بأنْ يكونوا أجابُوا كَلامَه بالرَّدِّ والزَّجرِ، فلمَّا اســتمَرَّ على دَعوتِهم وكرَّرَها فيهم، وَجَّهُوا مَقالَتَهم المَحْكيَّةَ هنا إلى قَومِهم، ومِن أجْلِ هذا عُطِفَتْ جُملةُ جَوابِهم، ولم تأْتِ على أُســلوبِ الاســتعمالِ في حِكايةِ أقوالِ المُحاوَراتِ. وأيضًا لأنَّ كَلامَ رَسولِهم لم يُحْكَ بصِيغةِ القولِ، بل حُكِيَ بـ (أنْ) التَّفسيريَّةِ لِمَا تَضمَّنَه معنى الإرسالِ في قولِه: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾[3] [4].

هذا، والله- تعالَى- أعلمُ بأسرار كلامه.

الموضع الخامس: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾[5].

والآية الكريمة في ســياق الحديث عن أحوال الكفَّارِ المحكيَّةِ فيما ســبَق بقولِه تعالى:

---

(١) الدَّنْدَنة أن يتكلّم الرجلُ بالكلام تَسمَع نَغْمَته ولا تفهمه عنه لأنّه يُخفيه. ينظر: تهذيب اللغة، (دَ دَ نَ).

(٢) ينظر: حاشية الطيبي على الكشاف، ١٠/ ٥٧٨.

(٣) سورة المؤمنون، من الآية: ٣٢.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير، ١٨/ ٥١.

(٥) سورة المؤمنون، الآية: ٦٤.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾(١).

قال ابن كثير: " حَتَّى إِذَا جَاءَ مُتْرَفِيهِمْ- وَهُمُ السُّعَدَاءُ الْمُنَعَّمُونَ فِي الدُّنْيَا- عذابُ اللهِ وَبَأْسُهُ وَنِقْمَتُهُ بهم ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾؛ أَيْ: يَصْرُخُونَ وَيَسْتَغِيثُونَ"(٢).

وقال الشوكاني: "وَالضَّمِيرُ فِي ﴿مُتْرَفِيهِم﴾ رَاجِعٌ إِلَى مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ الْكُفَّارِ، وَالْمُرَادُ بِالْمُتْرَفِينَ الْمُتَنَعِّمُونَ مِنْهُمْ، وَهُمُ الَّذِينَ أَمَدَّهُمُ اللهُ بِمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ الْمَالِ وَالْبَنِينَ، أَوِ الْمُرَادُ بِهِمُ الرُّؤساءُ منهم"(٣).

والتعبير بالأَخْذِ في قوله تعالى: ﴿أَخَذْنَا﴾ فيه إشارة إلى سرعة هذا العقاب وشدَّته، كأنَّ مَن يُنزِل به العقابَ يَصير كالمأخوذِ المأسُورِ الذي لا يَقدِر على التخلُّص(٤).

وقريب من هذه الآية الكريمة في معناها قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾(٥)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾(٦).

وإنما جَعَل الله- تعالَى- الأَخْذَ واقعًا على المترفينَ منهم؛ "لِأَنَّهُمُ الَّذِينَ أَضَلُّوا عَامَّةَ قَوْمِهِمْ، ولولا نُفوذُ كَلِمتِهم على قَومِهم لاتَّبعَتِ الدَّهماءُ الحقَّ؛ لِأَنَّ الْعَامَّةَ أَقْرَبُ إِلَى الْإِنْصَافِ إِذَا فَهِمُوا الْحَقَّ بِسَبَبِ سَلَامَتِهِمْ مِنْ جُلِّ دَوَاعِي الْمُكَابَرَةِ مِنْ تَوَقُّعِ تَقَلُّصِ سُؤْدُدٍ وَزَوَالِ نَعِيمٍ. وَكَذَلِكَ حَقٌّ عَلَى قَادَةِ الْأُمَمِ أَنْ يُؤَاخَذُوا بِالتَّبِعَاتِ اللَّاحِقَةِ لِلْعَامَّةِ مِنْ جَرَّاءِ

(١) السورة السابقة، آيتا: ٥٥، ٥٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٤٨٢.

(٣) فتح القدير، ٣/ ٥٧٩.

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب: الرازي، ٧/ ١٥٤ . التفسير الوسيط: طنطاوي، ١٠/ ٤٧.

(٥) سورة الأنعام، من الآية: ٤٤.

(٦) سورة المؤمنون، الآية: ٧٦.

أَخْطَائِهِمْ وَمُغَامَرَتِهِمْ عَنْ تَضْلِيلٍ أَوْ سُوءِ تَدَبُّرٍ، وَأَنْ يُسْأَلُوا عَنِ الْخَيْبَةِ أَنْ أَلْقَوْا بِالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ فِي مَهْوَاةِ الْخَطَرِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[1]، وقال: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[2][3]".

وفي تَخصيصِ المُترفينَ من المشركين بالتَّعذيبِ- مع أنَّ شأْنَ العَذابِ الإلهيِّ إنْ كان دُنْيويًّا أنْ يعُمَّ النَّاسَ كلَّهم-: إشارةٌ إلى أنَّ المُتْرفينَ هم سبَبُ نُزولِ العذابِ بالعامَّةِ، ولأنَّهم هم أشَدُّ إحساسًا بالعذابِ؛ لأنَّهم لم يَعتادُوا مَسَّ الضَّراءِ والآلامِ، ولأنَّهم مع كَونِهم مُتَمنِّعينَ مَحْمِيِّينَ بحِمايةِ غَيرِهم مِن المَنَعةِ والحَشَمِ حين لَقُوا ما لَقُوا مِن الحالةِ الفظيعةِ، فلأنْ يَلْقاها مَنْ عَداهم مِن الحُماةِ والخَدمِ أَوْلى وأقدَمُ[4]. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ بالمُتْرفينَ جَميعَ المُشرِكينَ، ويكون ذِكْرُ المُتْرفينَ تَهويلًا في التَّهديدِ؛ تَذكيرًا لهم بأنَّ العذابَ يُزيلُ عنهم تَرَفَهم؛ فيكونَ المعنى: حتَّى إذا أخَذْناهم وهم في تَرَفِهم، كَقَوْلِهِ: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾[5] [6].

وقوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ كنايةٌ عن شِدَّةِ ألَمِ العذابِ، بحيث لا يَستطيعونَ صَبرًا عليه؛ فيَصدُرُ منهم صُراخُ التَّأوُّهِ والوَيلِ والثُّبورِ- كما أفاده الطاهر ابن عاشور[7]-.

---

(١) سورة الأحزاب، آيتا: ٦٧، ٦٨.

(٢) سورة النحل، الآية: ٢٥.

(٣) التحرير والتنوير، ١٨/ ٨٢.

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم: أبوالسعود، ٦/ ١٤٢. التحرير والتنوير، ١٨/ ٨٢.

(٥) سورة المزمل، الآية: ١١.

(٦) ينظر: التحرير والتنوير، ١٨/ ٨٢، ٨٣.

(٧) التحرير والتنوير، ١٨/ ٨٤.

ولعل ما يدل على شدة ألم عذابهم التعبير بـ ﴿إِذَا﴾ الفجائية التي تشير إلى أن جُؤَارَهم وصُراخَهم ذلًّا وانكسارًا كان بعد نزول العذاب بهم مباشرة، وقد أخبر الله عن صُراخِهم واستغاثتهم من هذا الهول الذي هم فيه في آيَاتٍ أُخَرَ، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا﴾[1]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَۖ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا﴾[2]، وقوله: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ﴾[3].

الموضع السادس: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[4].

يقول الشوكاني: "لَمَّا قَصَّ - سُبْحَانَهُ - حَالَ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْكُفَّارِ أَتْبَعَهُ بِمَا فِيهِ التَّسْلِيَةُ لِرَسُولِهِ، وَبَيَانِ أَنَّ كُفْرَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ بِمَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ مِنَ الرُّسُلِ هُوَ كَائِنٌ مُسْتَمِرٌّ فِي الْأَعْصُرِ الْأُوَلِ فَقَالَ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ﴾ يُنْذِرُهُمْ وَيُحَذِّرُهُمْ عِقَابَ اللهِ ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾ أَيْ: رُؤَسَاؤُهَا وَأَغْنِيَاؤُهَا وَجَبَابِرَتُهَا وَقَادَةُ الشَّرِّ لِرُسُلِهِمْ ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أَيْ: بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ"[5].

وتنكير لفظ ﴿نَّذِيرٍ﴾، ووقوعه في سياق النفي يفيد العموم. وقد اقتصَرَ في هذا الموضع على ذكر الإنذارِ دونَ البشارة؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تخويف سادةِ المشركين وكُبَرائهم مِن أهْلِ مكَّةَ؛

---

(١) سورة الفرقان، آيتا: ١٣، ١٤.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٣٦، ومن الآية: ٣٧.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٧٧.

(٤) سورة سبأ، الآية: ٣٤.

(٥) فتح القدير، ٤/ ٣٧٨.

وتهديدهم بأنْ يقَعَ لهم ما وقَعَ بأمثالهم من أهل القُرى ممن كذَّبوا الرسل بسبب إغراء زُعمائهم.

وقال البقاعي: "ودلَّ بإفراده عن البشارة أن غالب الأمم الماضية من أهل النِّذارة؛ لتظهر مزيَّة هذه الأمة"(١).

وتَخصيصُ المُتنعِّمينَ بالتَّكذيبِ في قولِه: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ لأنَّ الدَّاعيَ إليه التَّكبُّرُ والمُفاخَرةُ بزَخارفِ الدُّنيا، والانهماكُ في الشَّهواتِ، والاستهانةُ بمَن لم يَحْظَ منها؛ ولذلك ضَمُّوا التَّهكُّمَ والمُفاخَرةَ إلى التَّكذيبِ فقالوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾(٢).

وفي بِناءِ قولِه: ﴿مُتْرَفُوهَآ﴾ للمَفعولِ تَعريضٌ بالتَّذكيرِ بنِعمةِ اللهِ عليهم؛ لعلَّهم يَشكُرونَها، ويُقلِعون عن الإشراكِ به، وقولهم: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ تهكُّم، وهو كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾(٣)، أو المعنى: إِنَّا بِمَا ادَّعَيْتُمْ أَنَّكُمْ أُرسِلْتُم بِهِ(٤).

الموضع السابع: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾(٥).

والآية الكريمة في سياق الإنكار على المشركين عبادتَهم غَيْرَ اللهِ بلا بُرْهَانٍ ولا دَلِيلٍ ولا حُجَّةٍ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ

(١) نظم الدرر، ١٥/ ٥١٢.

(٢) ينظر: تفسير البيضاوي، ٤/ ٢٤٨.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٦.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير، ٢٢/ ٢١٢.

(٥) سورة الزخرف، الآية: ٢٣.

﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾[١]، ولَمَّا بيَّن -تعالَى- أنَّه لا دليلَ على صِحَّةِ قَولِهم البتَّةَ لا مِنَ العَقلِ ولا مِنَ النَّقلِ؛ بيَّنَ أنَّه لا حامِلَ لهم يَحمِلُهم عليه إلَّا التَّقليدُ؛ فقال: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[٢]، ثمَّ يُسلِّي اللهُ -تعالَى- نبيَّه ﷺ مبيِّنًا أنَّ مَقالَةَ هَؤُلَاءِ قَدْ سَبَقَهُمْ إِلَيْهَا أَشْبَاهُهُمْ وَنُظَرَاؤُهُمْ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ الْمُكَذِّبَةِ لِلرُّسُلِ فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ ...﴾[٣].

وقوله -تعالَى- مخبرًا عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ يعني: "قالوا: إنا وجدنا آباءنا على مِلَّة ودين. ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ يعني: وإنا على منهاجهم وطريقتهم. ﴿مُّقْتَدُونَ﴾ بِفِعلهم، نفعل كالذي فعلوا، ونعبد ما كانوا يعبدون؛ يقول جلّ ثناؤه لمحمد ﷺ: فإنما سَلَكَ مشركو قومِك منهاجَ مَنْ قبلهم مِن إخوانهم مِن أهل الشرك بالله في إجابتهم إيَّاك بما أجابوك به، وردّهم ما ردّوا عليك من النصيحة، واحتجاجهم بما احتجُّوا به لمُقامهم على دينهم الباطل"[٤].

وفي هذا الموضع من سورة الزخرف تقدَّمَ ذِكْر القَبْلِيَّةِ في قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ ...﴾؛ اهتِمامًا بالتَّسلِيَةِ، وتَخليصًا لها مِن أنْ يَتَوَهَّمَ أنَّه يَكونُ معه في زَمانِه أو بَعدَه نَذيرٌ، وإفهامًا لأنَّ المُجَدِّدَ لشَريعَتِه إنَّما يَكونُ مُغيثًا لأُمَّتِه، وبَشيرًا لا نَذيرًا لثَباتِهم على الدِّينِ بتَصديقِهم جَميعَ النَّبيِّينَ، وأسقَطَ هذه القَبليَّةَ في سُورَةِ (سبأ) في قولِه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾؛ لأنَّ المُرادَ فيها التَّعميمُ؛ لأنَّه لم يتَقَدَّمْ لقُرَيشٍ ذِكرٌ حتَّى يُخَصَّ مَن قَبْلَهُم[٥].

---

(١) السورة السابقة، الآيات: ١٩- ٢١.

(٢) السورة السابقة، الآية: ٢٢.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ٧/ ٢٢٤. اللباب في علوم الكتاب: ابن عادل، ١٧/ ٢٤٨.

(٤) جامع البيان: الطبري، ٢١/ ٥٨٦.

(٥) ينظر: نظم الدرر: البقاعي، ١٧/ ٤١١.

وفي سـرِّ اخْتيـار التعبير بـالفعـل ﴿وَجَدْنَآ﴾ في قولـه- تعـالى- حكـايـة عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ يقول الطاهر ابن عاشور: "وَاخْتِيرَ التَّعْبِيرُ بِـ ﴿وَجَدْنَآ﴾؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِشَـارَةِ إِلَى أَنهم نشـأوا عَلَيْهَا وَعَقَلُوهَا، وَذَلِكَ مِمَّا يُكْسِـبُهُمْ تَعَلُّقًا بِهَا، وَأَنَّهَا كَانَتْ أَحْوَالَ آبَائِهِمْ وَذَلِكَ مِمَّا يَزِيدُهُمْ تَعَلُّقًا بِهَا تَبَعًا لِمَحَبَّةِ آبَائِهِمْ لِأَنَّ مَحَبَّةَ الشَّـيْءِ تَقْتَضِـي مَحَبَّةَ أَحْوَالِهِ وَمُلَابَسَاتِهِ"(١).

وقريـب من هـذه الآيـة الكريمـة قولـه تعـالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾(٢)، وقـولـه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾(٣)، وقـولـه عـن قـوْمِ إِبْـرَاهِـيـمَ عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾(٤)، وقـولـه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾. وقـولـه: ﴿يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾(٥). وقـولـه: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾(٦).

الموضع الثامن: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾(٧).

لمَّـا كـان سـيـاق قولـه- تعـالى-: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١ فِى سَمُومٍ

---

(١) التحرير والتنوير، ١١/ ٢٥١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٠.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٠٤.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٥٣.

(٥) سورة لقمان، الآية: ٢١.

(٦) سورة الصافات، آيتا: ٦٩، ٧٠.

(٧) سورة الواقعة، الآية: ٤٥.

وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾[١] في ذِكْره ﷻ ما أعَدَّه لأصحابِ الشِّمالِ مِن العذابِ؛ بيَّن بعضَ أسبابِه[٢] فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾؛ "أي: كانوا في الدَّار الدنيا مُنَعّمينَ مُقبلين على لذَّات أنفسهم لا يَلوُون على ما جاءتهم به الرسل"[٣].

قال أبو السعود: "﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ تعليلٌ لابتلائِهم بما ذُكِرَ من العذابِ؛ أي إنَّهم كانُوا قبلَ ما ذُكر من سُوءِ العذابِ في الدُّنيا مُنَعّمينَ بأنواعِ النعمِ من المآكلِ والمشاربِ والمساكنِ الطيبةِ والمقاماتِ الكريمةِ مُنهمكينَ في الشَّهواتِ فلا جرمَ عُذِّبُوا بنقائضها"[٤].

وفي قَولِه- تعالى-: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ سُؤالٌ، وهو أنَّ إصرارَهم على الحِنْثِ وإنكارَهم البَعثَ لا يَخفى تَسَبُّبُه في العَذابِ؛ لأنَّ اللهَ توَعَّدَهم عليه فلم يُقلِعوا عنه، وإنَّما يَبقى النَّظَرُ في قَولِه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾؛ فإنَّ التَّرَفَ في العَيشِ ليس جريمةً في ذاتِه، وكم مِن مُؤمِنٍ عاش في تَرَفٍ؟! وليس كُلُّ كافِرٍ مُترَفًا في عَيشِه، فلا يكونُ التَّرَفُ سَبَبًا مُستَقِلًّا في تسَبُّبِ الجزاءِ الَّذي عُومِلوا به، فما وجْهُ ذلك؟

والجَوابُ مِن وَجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ الإترافَ سَبَبٌ باعتِبارِ ضَميمةِ ما ذُكِرَ بَعْدَه إليه، بأنْ كان إصرارُهم على الحِنْثِ وتكذيبُهم بالبَعثِ جَريمتَينِ عَظيمتَينِ؛ لأنَّهما مَحفوفتانِ بكُفرِ نِعمةِ التَّرَفِ الَّتي خَوَّلَهم اللهُ إيَّاها، على نَحوِ قَولِه تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[٥] فيكونُ الإترافُ جُزءَ سَبَبٍ،

---

(١) السورة السابقة، الآيات: ٤١- ٤٤.

(٢) ينظر: أضواء البيان: الشنقيطي، ٧/ ٥٢١.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ٧/ ٥٣٨.

(٤) إرشاد العقل السليم، ٨/ ١٩٤، ١٩٥.

(٥) سورة الواقعة، الآية: ٨٢.

وليس سَبَبًا مُستَقِلًّا، وفي هذا مِن معنى قَولِه تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾(١).

الثَّاني: أنَّ التَّرَفَ في العَيشِ عَلَّقَ قُلوبَهم بالدُّنيا، واطمأنُّوا بها؛ فكان ذلك مُمْليًا على خَواطِرِهم إنكارَ الحياةِ الآخِرةِ، فيَكونُ المرادُ التَّرَفَ الَّذي هذا الإنكارُ عارِضٌ له وشَديدُ المُلازَمةِ له، فهو كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾(٢)(٣).

وقد أكَّد ﷺ وصفَهم بالتَّرف بمؤكّدات أربعة: أوَّلها: (إنَّ) الدالَّة على التوكيد، وثانيها: التعبير بـ (كَانَ) الَّدالة على الدوام والاستمرار، وثالثها: نزع الجارِّ في قوله: ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ الذي أفاد استغراق الزمان(٤)، ورابعها: التعبير بالجملة الاسمية للدلالة على الثبات والاستقرار.

وفي قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾(٥) لطيفةٌ: "وهي أنَّه أشار في الآياتِ الثَّلاثِ إلى الأُصولِ الثَّلاثةِ؛ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ مِنْ حَيْثُ الِاسْتِعْمَالُ يَدُلُّ عَلَى ذَمِّهِمْ بِإِنْكَارِ الرُّسُلِ؛ إِذِ الْمُتْرَفُ مُتَكَبِّرٌ بِسَبَبِ الْغِنَى فَيُنْكِرُ الرِّسَالَةَ، وَالْمُتْرَفُونَ كَانُوا يَقُولُونَ: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾(٦)، وقوله: ﴿يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى الشِّرْكِ وَمُخَالَفَةِ التَّوْحِيدِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

---

(١) سورة المزمل، الآية: ١١.

(٢) سورة محمد، من الآية: ١٢.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير، ٢٢/ ٢١٢.

(٤) ينظر: نظم الدرر: البقاعي، ١٩/ ٢١٣.

(٥) سورة الواقعة، الآيات: ٤٥- ٤٨.

(٦) سورة القمر، من الآية: ٢٤.

﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ إِشَارَةٌ إِلَى إِنْكَارِ الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ"(١).

وشبيه بهذه الآية الكريمة في معناها ومقاصدها قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾(٢).

والذي يظهر حين تأمُّل مواضع ورود التَّرف في القرآن الكريم ما يأتي:

أولًا: جميع السُّور التي ورد فيها الحديث عن التَّرف في القرآن الكريم سورٌ مكيَّة؛ وذلك لما فيها من الوعيد والزجر المُناسبيْن للمشركين المُخاطَبين بهذه الآيات، وتهديدهم، وبيان مصيرهم؛ ولذلك لم يرد ذِكر التَّرف في مواضعه الثمانية في القرآن الكريم إلا في سياق الذم.

ثانيًا: أغلب الصيغ الواردة في التعبير عن التَّرف من حيث الاستعمال القرآني: اسم المفعول المشتق من الفعل الرباعي "أَتْرَفَ"؛ وهو ما يشير- والله أعلم- إلى أنهم كانوا مُنعَّمِين بأنواع النِّعم، ورغم ذلك غفلوا عن العلم بمن أترفَهُم، وأطغتهم النعمةُ وسَعة العيش فلم يشكروا الله عليها.

ثالثًا: من خلال تتبُّع الآيات التي ذُكِر فيها التَّرف في القرآن الكريم يتبيَّن أن للمترفين أخلاقًا دَرَجُوا عليها في حياتهم، وعاداتٍ مطردةً اتَّصفوا بها على مرِّ الزمان، ومن هذه الصفات التي أشار إليها القرآن الكريم ما يأتي(٣):

أ- **كفران النِّعم والاهتمام بالملذات والشهوات**: وهو ما ذكره الله في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾(٤)؛ فالإغراق في التنعم، والانغماس في

(١) مفاتيح الغيب: الرازي، ٢٩/ ٤١١.

(٢) سورة الانشقاق، الآيات: ١٠- ١٤.

(٣) ينظر: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد: عبد الكريم زيدان، صـ١٨٤، ١٨٥. نظرة القرآن إلى الترف والمترفين: مريم محمود، صـ٢٦٩، ٣١٨، ٣٨٢. الآيات الواردة في هلاك الأمم: عمر سلامة البرصان، صـ٩٧، ١٠١. حديث القرآن عن الترف والمترفين: أحمد سالم باطاهر، صـ٢٨٩، ٢٩١- ٢٩٣.

(٤) سورة هود، من الآية: ١١٦.

حب الدنيا وشـهواتها هو الباعث على الإسـراف والفسـوق والعصـيان، ولهذا قَرَنَهُ القرآن الكريم بصفتَيْ الظلم والإجرام.

قال الطبري: "إن الله أخبر -تعالَى ذِكرُه-: أن الذين ظلموا أنفسـهم من كل أمة سَـلَفَتْ فكفروا بالله، اتَّبعوا ما أُنْظِرُوا فيه من لذَّات الدنيا، فاسـتكبروا وكفروا بالله، واتَّبعوا ما أُنْظِرُوا فيه من لذَّات الدنيا، فاستكبروا عن أمر الله وتجبَّروا وصدُّوا عن سبيله؛ وذلك أَنَّ الْمُتْرَفَ في كلام العرب: هو الْمُنعمُ الَّذِي قد غُذِّيَ بِاللَّذَّاتِ"[1].

وقال صـاحب "المنار": "﴿وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾؛ أَيْ: مُتَلَبِّسِـينَ بالإجرام الذي وَلَّدَهُ التَّرَفُ رَاسِخِينَ فِيهِ فكان هو المُسخّر لعقولهم في تَرْجِيحِ مَا أعْطوا من ذلك على اتِّبَاعِ الرُّسُلِ"[2].

ب- **تكذيب الرسـل، وردّ الحق الذي جاءوا به، وإنكار البعث والجزاء**: ومما ورد في هذا الشـأن قولـه تـعـالـى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[3]، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[4]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾[5].

---

(١) جامع البيان، ١٥/ ٥٢٩.

(٢) تفسير المنار، ١٢/ ١٥٨.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٣٤.

(٤) سورة المؤمنون، الآيات: ٣٣- ٣٧.

(٥) سورة الواقعة، الآيات: ٤٥- ٤٨.

وقد دلّت هذه الآيات "على أن المترفين هم الذين يحملون كِبر الصدِّ عن سبيل الله، كما دلَّت على أن ردّ دعوة الرسل، ورفض الإيمان باليوم الآخر، سببه التَّرف والبطر، وليس سببه شبهة أو حُجَّة، فبدلًا من أن تكون النعمة عند هؤلاء سببَ شكرٍ، كانت سببًا للكفر"(١)؛ ذلك أن التَّرف من شأنه أن يُفسِد الفطرة، ويطمس القلب فلا يرى دلائل الهداية، ولأن الإيمان بدعوات الرسل، والامتثال للمعروف، وترك المنكرات سوف يضطرهم إلى التخلي عن بعض ما يتمتعون به من نعيم، وسوف يحدد لهم سبل المتاع المباح، وهو بالنسبة لهم قليل لا يُرضِي مرضَ نفوسهم وترهُّلَ شهواتهم(٢).

ويُبيِّن عبد الكريم الخطيب سبب اختصاص المُترفين بالذِّكر فيقول: "لأنهم هم الذين يقومون دائمًا فى وجه كل دعوة تخرج بالنَّاس عما هم فيه من حال إلى حال، فإن هذا التحول يُؤذِن أهل التَّرف والغنى بأن يخرجوا عما هم فيه؛ ومن هنا كان أكثر الناس حربًا وأشدهم عداوة لدعوات الإصلاح، هم أصحاب المال، والجاه والسلطان، حيث لا يريدون تحوّلًا عن حالهم التي هم فيها"(٣).

وأما ما يَترَتَّبُ على إِنْكَارِ البعث والجَزَاء من فساد الفطرة البشرية المُفْضِي إلى الشُّرور الكثيرة فيقول رشيد رضا- ما ملخصه-: إن الكفر بالبعث والجزاء واعتقاد أنه لا حياة بعد هذه الحياة يجعل هَمَّ الكافر محصورًا في الاستمتاع بلذَّات الدنيا وشهواتها البدنية والنفسية؛ كالجاه والرياسة والعلو في الأرض ولو بالباطل، ومن كانوا كذلك كانوا شرًّا من الشياطين يكيد بعضهم لبعض ويفترس بعضهم بعضًا لا يصدُّهم عن الشر إلا العجز ولا تحكم بينهم

(١) الأساس في التفسير: سعيد حوى، ٨/ ٤٥٤٠.

(٢) ينظر: السنن الإلهية: عبد الكريم زيدان، صـ١٨٨. نظرة القرآن إلى الترف والمترفين: مريم محمود، صـ٤١٧. الآيات الواردة في هلاك الأمم: عمر سلامة البرصان، صـ٩٧، ٩٨.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، ١٣/ ١٢٢.

إلا القوة[١].

ج- التكبر والتفاخر بزينة الحياة الدنيا، والاستخفاف بمن لم يظفر منها ما ظفروا هُم به:

وهو ما حكاه الله إخْبَارًا عن قوم نوح: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾[٢]، ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾[٣]، **وقوله حكاية عن قارون:** ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[٤]، **وقوله تعالى إخبارًا عن المُترفين:** ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[٥].

يقول ابن كثير: "أَيْ: افْتَخَرُوا بِكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى مَحَبَّةِ اللهِ لَهُمْ وَاعْتِنَائِهِ بِهِمْ، وَأَنَّهُ مَا كَانَ لِيُعْطِيَهُمْ هَذَا فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ يُعَذِّبُهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَهَيْهَاتَ لَهُمْ ذَلِكَ"[٦].

وهذا ما أكَّده الله في غير موضعٍ من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾[٧]، **وقوله:** ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[٨]، **وقوله:** ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ

(١) تفسير المنار، ٧/ ٣٠٧، ٣٠٨. وينظر: تفسير المراغي، ٧/ ١٠٥.
(٢) سورة هود، الآية: ٢٧.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ١١١.
(٤) سورة القصص، من الآية: ٧٨.
(٥) سورة سبأ، الآية: ٣٥.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٥٢١.
(٧) سورة التوبة، الآية: ٥٥.
(٨) سورة المؤمنون، آيتا: ٥٥، ٥٦.

يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾[١].

وقد بيَّن الله-تعالَى- أن الكِبْرَ من صفات المترفين وأنه سبب عذابهم وهلاكهم[٢]، **فقال:** ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴾[٣].

د- التقليد المذموم للآباء والأجداد: فالذين أبطرتهم النعمة لم يكن لهم حجة سوى تقليد آبائهم في الكفر والضلال، والعدول عن الإيمان بالله إلى الاحتجاج بما نشأ عليه من دين الآباء والأجداد هو ما ذمَّه الله في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[٤]، **حتى قال الفخر الرازي: "لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَّا هَذِهِ الْآيَاتُ لَكَفَتْ فِي إِبْطَالِ الْقَوْلِ بِالتَّقْلِيدِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ -تَعَالَى- بَيَّنَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارَ لَمْ يَتَمَسَّكُوا فِي إِثْبَاتِ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ لَا بِطَرِيقٍ عَقْلِيٍّ وَلَا بِدَلِيلٍ نَقْلِيٍّ، ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ بِمُجَرَّدِ تَقْلِيدِ الْآبَاءِ وَالْأَسْلَافِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ- تَعَالَى- هَذِهِ الْمَعَانِيَ فِي مَعْرِضِ الذَّمِّ وَالتَّهْجِينِ"**[٥].

ثم ذكر الفخر الرازي "أَنَّهُ- تَعَالَى- بَيَّنَ أَنَّ الدَّاعِيَ إِلَى الْقَوْلِ بِالتَّقْلِيدِ وَالْحَامِلَ عَلَيْهِ، إِنَّمَا هُوَ حُبُّ التنعم فِي طَيِّبَاتِ الدُّنْيَا وَحُبُّ الْكَسَلِ وَالْبِطَالَةِ وَبُغْضُ تَحَمُّلِ مَشَاقِّ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾، **وَالْمُتْرَفُونَ هُمُ الَّذِينَ أَتْرَفَتْهُمُ النِّعْمَةُ؛ أَيْ: أَبْطَرَتْهُمْ فَلَا يُحِبُّونَ إِلَّا الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَاهِيَ، وَيُبْغِضُونَ تَحَمُّلَ الْمَشَاقِّ فِي طَلَبِ الْحَقِّ"**[٦].

---

(١) سورة المدثر، الآيات: ١١- ١٧.

(٢) ينظر: حديث القرآن عن الترف والمترفين: أحمد سالم باطاهر، صـ٢٩٠.

(٣) سورة المؤمنون، الآيات: ٦٤- ٦٧.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٢٣.

(٥) مفاتيح الغيب، ٢٧/ ٦٢٧، ٦٢٨.

(٦) المرجع السابق، ٢٧/ ٦٢٨.

رابعًا: من خلال الآيات التي ذُكِرَ فيها الترف يتبين أنه لم يرد الإتراف في القرآن إلا مدعاةً إلى العقوبة في الدنيا والآخرة؛ فالمترفون- لا سيما إذا كَثُروا أو أصبحوا سادة- هم سبب نزول العذاب بالعامة، والتَّرف يُعَدُّ من أكبر عوامل سقوط المجتمعات، ومن أهم أسباب العقاب الإلهي التي وَرَدت في القرآن الكريم؛ فهو "الْبَاعِثُ عَلَى الْإِسْـرَافِ وَالْفُسُـوقِ وَالْعِصْـيَانِ، وَالظُّلْمُ وَالْإِجْرَامُ يَظْهَرُ فِي الْكُبَرَاءِ وَالرُّؤَسَـاءِ، وَيَسْـرِي بِالتَّقْلِيدِ فِي الدَّهْمَاءِ، فَيَكُونُ سَـبَبَ الْهَلَاكِ بِاسْتِئْصَالٍ، أَوْ فَقْدِ الِاسْتِقْلَالِ"(١).

وبذلك يظهر شؤم الترف وأنه من صفات الظالمين، ومن أسباب ترك النهي عن المنكر، **قال تعالى**: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾(٢).

قال البيضاوي: "كأنه أراد أن يُبيِّن ما كان السبب لاستئصال الأمم السالفة، وهو فُشُوّ الظلم فيهم واتباعهم للهوى وترك النهي عن المنكرات مع الكفر"(٣).

وفي ذلك يقول الله- تعالى-: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٤)، **ويقول**: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَـٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾(٥)، **ويقول**: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٦).

---

(١) تفسير المنار، ١٢/ ١٥٨.

(٢) سورة هود، من الآية: ١١٦.

(٣) أنوار التنزيل، ١٢/ ١٥٨.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٣.

(٥) سورة القصص، الآية: ٥٨.

(٦) سورة المزمل، الآيات: ١١- ١٣.

المبحث الثاني
قِصَّة سبأ أُنموذجٌ قرآنيٌّ لمفاسد التَّرف ومخاطره على المجتمعات

المطلب الأول: الآيات القرآنية الواردة في قصة سبأ، ومناسبتها لما قبلها، وتفسيرها.

أولًا: الآيات القرآنية الواردة في القصة، ومناسبتها لما قبلها:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[1].

هذه القِصَّة القرآنية تَحْكِي قِصَّة قومٍ كانوا في نِعْمَةٍ لا تُبَارَى، وغِبْطَةٍ لا تُجَارَى؛ فقد خصَّهم الله -تعالى- بأرزاقٍ دارَّة، وبساتين زاخرة بالزروع والثمار عن اليمين والشمال، فهي قرية آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا، أرضها طيبة الثمار والهواء، كثيرة الخيرات والبركات، ماؤها متدفق، وثمارها يانعة، وقطوفها دانية، وعطاؤها منهمر، وعيشهم رغيد خالٍ من كل منغّص، وأسفارهم سهلة، وطرقهم آمنة مُعبَّدة، وقُراهم متواصلة متقاربة، إلا أن هناك من يفسده النعيم، ويطغيه التَّرف؛ فمع كل هذه النعم والخيرات، أعرض هؤلاء القوم، وبدَّلوا نعمة الله كفرًا، وقابلوها بالأشر والبطر؛ فسلب الله منهم هذا النعيم؛ فبدَّل أمنَهُم خوفًا، ورغدَ عيشهِم ضنكًا، وجعلَ رزقهم كدًّا، وهلكت أموالهم، وخربت بلادهم،

(١) سورة سبأ، الآيات: ١٥- ١٩.

حتى أصـــبحوا أثرًا بعد عين، وغَدَوْا رواية تُروَى، وحكاية تُحكَى، يعرض القران قصـــتهم ويسجل نهايتهم في هذه الآيات التي تُتْلَى إلى يوم القيامة.

مناسبة الآيات لما قبلها:

يقول الآلوسي: "لما ذكر ﷺ حال الشاكرين لنِعَمِهِ المنيبين إليه تعالى، ذكر حال الكافرين بالنعمة المُعرضين عنه -جلّ شأنه- موعظة لقريش، وتحذيرًا لمن كفر بالنِّعم وأعرض عن المُنعِم"(١).

وفي مناسبة الآيات وكونها مثلًا ضُرِب للمشركين يقول ابن عاشور: "جَرَّ خبرُ سليمان عليه السلام إلى ذكر ســبأ؛ لما بين ملك ســليمان وبين مملكة ســبأ من الاتصــال بســبب قصــة "بِلْقِيسٍ"، ولأن في حال أهل سبأ مضادة لأحوال داود وسليمان، إذ كان هذان مثلًا في إسباغ النعمة على الشــاكرين، وكان أولئك مثلًا لســلب النعمة عن الكافرين، وفيهم موعظة للمشــركين إذ كانوا في بحبوحة من النعمة فلما جاءهم رســول من الْمُنْعِمِ عليهم يذكّرهم بربهم، ويوقظهم بأنهم خاطئون إذ عبدوا غيره، كذبوه وأعرضــوا عن النظر في دلالة تلك النعمة على المُنْعِم المتفرّد بالإلهية"(٢).

ثانيًا: تفسير الآيات القرآنية الواردة في القصة:

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾(٣).

تبدأ قصــة قوم ســبأ بوصــف ما كانوا فيه من أطيب عيشٍ وأرفَهِهِ، وأهنأ حالٍ وأرغده؛

---

(١) روح المعاني، ١١/ ٢٩٩.

(٢) التحرير والتنوير، ٢٢/ ١٦٥.

(٣) سورة سبأ، الآية: ١٥.

فيقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾؛ أي: والله لقد كان لسَبَأٍ في مواضع سكناهم ونظام بلدهم الذي كانوا فيه باليمن -وهو "مَأْرِب"- علامةٌ بَيِّنةٌ، وحجة واضحة على كمال قدرة الله، وبديع صُنعه، ووجوب شكره؛ فإنه لا رب لهم إلا الذي أنعم عليهم النعم التي كانوا فيها[١]، "وهذه الآية دالَّة بملاحظة أحوالِها السَّابقةِ واللاَّحقةِ على وجود الصَّانعِ المُختار القادر على كلِّ ما يشاء من الأمور البديعة، المُجازي للمحسنِ والمسيءِ"[٢].

قال ابن كثير: "كانت سَبَأٌ ملوك اليمن وأهلها، وكانت التَّبَابِعَةُ منهم، وَبِلْقِيسُ -صاحبة سليمان- منهم، وكانوا في نعمة وغِبطة في بلادهم، وعيشهم واتِّساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبَعَثَ الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه، ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أُمِروا به، فعُوقبوا بإرسال السيل والتفرُّق في البلاد"[٣].

وابتداء القصة بالتَّأكيد بلامِ القَسَمِ وحَرفِ التَّحقيقِ في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ...﴾؛ "لِتَنزيلِ المُخاطَبينَ بالتَّعريضِ بهذه القِصَّةِ مَنزِلةَ مَن يَتردَّدُ في ذلك؛ لِعَدَمِ اتِّعاظِهم بحالِ قَومٍ مِن أهْلِ بِلادِهم"[٤].

ثم فسّر -سبحانه- هذه الآية فقال: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ قيل: المراد أنهما بُسْتَانَانِ كانا بين جَبَلَيْن، عن يمين مَن أَتَاهُمَا وشماله[٥]. وقيل: لم يُرِدْ بُستانينِ اثنينِ

(١) ينظر: جامع البيان: الطبري، ٢٠/ ٣٧٥. الهداية إلى بلوغ النهاية: مكي بن أبي طالب، ٩/ ٥٩٠٦. الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ١٤/ ٢٨٣. التفسير الوسيط: سيد طنطاوي، ١١/ ٢٨٠.

(٢) روح المعاني: الآلوسي، ١١/ ٢٩٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٥٠٤.

(٤) التحرير والتنوير، ٢٢/ ١٦٥.

(٥) ينظر: جامع البيان: الطبري، ٢٠/ ٣٧٦. تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ٦/ ٥٠٧. وهو المرويّ عن قتادة. ينظر: تفسير الطبري، ١٩/ ٢٤٧.

فحَسْـبُ، وإنَّما أراد جماعتينِ مِن البَسـاتينِ: جماعةً عن يمينِ بلدِهم، وأُخرَى عن شِـمالِها، وكُلُّ واحدةٍ مِن الجماعتَينِ في تَقارُبِها وتَضامِّها كأنَّها جنَّةٌ واحدةٌ[1].

قالوا: كانت المرأة تَخْرُجُ، مِكْتَلُهَا على رأسها، فتمشي بين جَبَلَيْنِ، فَيَمْتَلِئُ مِكْتَلُهَا، وما مَسَّتْ بِيَدِهَا[2].

ويشير الطاهر ابن عاشور إلى أن أَهْلَ سَبَأٍ أُعْطُوا ما لم يُعْطَهْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِمْ، وأن بلادهم كانت أخصب البلاد وأكثرها جنانًا فيقول: "وكانت مدينتهم مأرب -بهمزة ساكنة بعد الميم، وهي بين صنعاء وحضرموت- قيل: كان السَّائِرُ في طَرَائِقِهَا لو وَضَعَ على رَأْسِهِ مِكْتَلًا لوجده قد مُلِيء ثِمَارًا مما يَسْقُطُ من الأشجار التي يسير تحتها. ولعلّ في هذا القول شيئًا من المبالغة إلا أنها تُؤذِن بِوَفْرَةٍ. وكان ذلك بسبب تدبيرٍ ألهمهم الله إياه في اختزان المياه النازلة في مواسم المطر بما بنوا من السد العظيم في مأرب"[3].

ويذكر -أيضًا- أن في قوله تعالى: ﴿جَنَّتَانِ﴾ تَشبيهًا بَليغًا؛ أي: في مَساكِنِهم شَبيهُ جنَّتينِ في أنَّه مُغترَسُ أشجارٍ ذاتِ ثَمرٍ مُتَّصِلٍ بَعضُها ببَعضٍ، مِثلُ ما يُعرَفُ مِن حالِ الجنَّاتِ. وتَثنيةُ جنَّتينِ باعتبارِ أنَّ ما على يَمينِ السَّائِرِ كَجَنَّةٍ، وما على يَسارِه كجنَّةٍ. وقيل: كان لكلِّ

---

(١) ينظر: الكشاف: الزمخشري، ٣/ ٥٧٥. أنوار التنزيل: البيضاوي، ٤/ ٢٤٤. رموز الكنوز: الرسعني، ٦/ ٢٢٩، وقال عن هذا القول: "هو قولُ عامَّةِ المفسِّرينَ". مدارك التنزيل: النسفي، ٣/ ٥٨. السراج المنير: الخطيب الشربيني، / ٢٩٠.

(٢) رواه الطبري في "تفسيره"، ٢٠/ ٣٧٦، عن قتادة، وابن أبي حاتم، ١٠/ ٣١٦٥، عن السُّدِّي. وينظر: بحر العلوم: السمرقندي، ٣/ ٨٤. الكشف والبيان: الثعلبي، ٨/ ٨٤. الهداية: مكي بن أبي طالب، ٩/ ٥٩٠٧. البسيط: الواحدي، ١٨/ ٣٤١. معالم التنزيل: البغوي، ٦/ ٣٩٣، الدر المنثور للسيوطي، ١٢/ ١٩٠.

(٣) التحرير والتنوير، ٢٢/ ١٦٧.

رجُلٍ منهم في مَسكنِه -أي: دارِه- جنَّتانِ: جنَّةٌ عن يَمينِ المَسكنِ، وجنَّةٌ عن شِمالِه، فكانوا يتفيَّأُون ظلالَهما في الصباح والمساء، ويَجْتَنُون ثمارَهما من نخيل وأعناب وغيرها، فيَكونُ معنى التَّركيبِ على التَّوزيعِ؛ أي: لكلِّ مَسكنٍ جنَّتانِ، وهذا مُناسبٌ لقولِه: {فِي مَسْكِنِهِمْ}[1] دونَ أنْ يقولَ: في بِلادِهم، أو دِيارِهم. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ أنَّ مَدينتَهم -وهي مَأرِبُ- كانت مَحفوفةً على يَمينِها وشِمالِها بغابةٍ مِن الجنَّاتِ يَصطافُّون فيها ويَستثمِرونها، وهذا يُناسِبُ قولَه بعْدُ: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾؛ لأنَّ ظاهرَه أنَّ المُبدَلَ به جنَّتانِ اثنتانِ، إلَّا أنْ تَجعلَه على التَّوزيعِ مِن مُقابَلةِ المُتعدِّدِ بالمُتعدِّدِ. والمعنى: أنهم كانوا أهل جنات مغروسة أشجارًا مثمرة وأعنابًا[2].

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ مقول قول إِمَّا من دلالة لسان الحال، وَإِمَّا أُبلِغُوهُ على ألسنة أنبياء بُعِثُوا منهم.

قال القرطبي: "﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾؛ أي: قيل لهم كُلُوا، ولم يكن ثمَّ أمر، ولكنهم تمكنوا من تلك النعم. وقيل: أي قالت الرسل لهم: قد أباح الله -تعالى- لهم ذلك؛ أي: أباح لكم هذه النِّعم فاشكروه بالطاعة"[3].

وقال البيضاوي: "﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ حكاية لما قال لهم نبيهم، أو لسان الحال، أو دلالة بأنهم كانوا أحِقَّاءَ بأن يُقَال لهم ذلك"[4].

---

(١) القراءة بالجمع هي قراءة الجمهور، وقرأ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَخَلَفٌ وَحَفْصٌ بسكون السين مع القصر؛ أي: حذف الألف بعدها على الإفراد. ينظر: النشر: ابن الجزري، ٢/ ٣٥٠.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ٢٢/ ١٦٦، ١٦٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٢٨٤.

(٤) أنوار التنزيل، ٤/ ٢٤٤.

﴿مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾؛ يعني: من ثِمَارِ الْجَنَّتَيْنِ[1]. ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾ على ما رَزَقَكُمْ من هذه النِّعَمِ، وَاعْمَلُوا بِطَاعَتِهِ، وَاجْتَنِبُوا مَعَاصِيَهُ[2].

يقول الفخر الرازي: "قَوْلُهُ: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ إِشَارَةٌ إلى تَكْمِيلِ النِّعَمِ عليهم؛ حيث لم يَمْنَعْهُمْ من أَكْلِ ثِمَارِهَا خَوْفٌ ولا مَرَضٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾ بَيَانٌ أَيْضًا لِكَمَالِ النِّعْمَةِ، فَإِنَّ الشُّكْرَ لَا يُطْلَبُ إِلَّا عَلَى النِّعْمَةِ الْمُعْتَبَرَةِ"[3].

ثم لَمَّا بيَّن حالَهم في مساكنِهم وبساتينِهم وأكْلِهم؛ أتمَّ بيانَ النِّعمةِ؛ فقال: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾؛ يعني: كريمة التُّربة، حَسَنة الهواء، رغدة من النعم، سليمة من الهَوَام والمضارّ، ليس فيها شيء مُؤذٍ، وقيل: المراد بطِيبها: صحة هوائها، وعذوبة مائها، ووفور نزهتها، وأنه ليس فيها حرٌّ يؤذي في الصيف، ولا برد يؤذي في الشتاء[4].

قال القرطبي: "﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾؛ أي: وَالْمُنْعِمُ بها عليكم رَبٌّ غَفُورٌ يَسْتُرُ ذنوبَكُم، فَجَمَعَ لهم بين مغفرة ذنوبهم، وَطِيبِ بلدهم، ولم يجمع ذلك لجميع خلقه"[5].

وقد وصف صاحب "مروج الذهب" بلادَ سبأ فذكر أنها كانت من أخصب أرض اليمن، وأثراها، وأعذبها، وأغدقها، وأكثرها جنانًا، وكانت مسيرةَ أكثر من شهر للراكب المُجدّ على هذه الحال، وفي العرض مثل ذلك، وأن الراكب كان يسير في تلك الجِنان من

---

(١) ينظر: معالم التنزيل: البغوي، ٦/ ٣٩٣.

(٢) ينظر: فتح القدير: الشوكاني، ٤/ ٣٦٧.

(٣) مفاتيح الغيب، ٢٥/ ٢٠٠.

(٤) ينظر: البسيط: الواحدي، ١٨/ ٣٤٢. المحرر الوجيز: ابن عطية، ٤/ ٤١٣. مفاتيح الغيب: الرازي، ٢٥/ ٢٠٠. روح المعاني: الآلوسي، ١١/ ٣٠٠.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٢٨٤.

أولها إلى أن ينتهي إلى آخرها، لا تواجهه الشمس، ولا يفارقها الظل؛ لاستتار الأرض بالأشجار، واستيلائها عليها، وإحاطتها بها، فكان أهلها في أطيب عيشٍ وأرفهه، وأهنأ حال وأرغده، وفي نهاية الخصب، وطيب الهواء، وصفاء الفضاء، وتدفّق الماء، وقوة الشوكة، واجتماع الكلمة، ثم ذكر خبراً طويلاً في أخبارهم وخراب ما كان من آثارهم وتفرقهم في البلاد وشتاتهم بين العباد[١]. نسأل الله العفو والعافية!

قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾[٢].

لَمَّا ذكَرَ -تعالى- ما كان مِن جانبِه مِن الإحسانِ إلى قوم سبأ؛ ذكَرَ ما كان مِن جانِبِهم في مُقابَلتِه[٣]؛ فقال: ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾؛ "أي: عن الشكر كما يقتضيه المقام، ويدخل فيه الإعراض عن الإيمان؛ لأنه أعظم الكفر والكفران"[٤].

﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾: "والإرسال: الإطلاق، وهو ضد الحبس، وتعديته بحرف "على" مُؤْذِنَةٌ بأنه إرسال نقمة؛ فإن سيل العرم كان محبوسًا بالسَّدِّ في مأرب فكانوا يرسلون منه بمقدار ما يسقون جناتهم، فلما كفروا بالله بعد الدعوة للتوحيد؛ قدَّر الله لهم عقابًا بأن قدَّر أسباب انهدام السد فاندفع ما فيه من الماء فكان لهم خطرًا وإتلافًا للأنعام والأشجار، ثم أعقبه جفافٌ باختلاف نظام تساقط الأمطار وانعدام الماء وقت الحاجة إليه، وهذا جزاء

(١) ينظر: مروج الذهب: المسعودي، ٢/ ١٦١، ١٦٢. وينظر: نظم الدرر: البقاعي، ١٥/ ٤٧٦، ٤٧٧.

(٢) سورة سبأ، آيتا: ١٦، ١٧.

(٣) ينظر: البحر المحيط، ٧/ ٢٥٩.

(٤) روح المعاني: الآلوسي، ١١/ ٣٠٠.

على إعراضهم وشركهم"[1].

وقد ذكر المفسرون في تفسير لفظ ﴿ٱلۡعَرِمِ﴾ أقوالًا متعددة، فقيل: إنه اسم لِلسَّدِّ، والمعنى: أرسلنا عليهم سَيْلَ السَّدِّ الْعَرِمِ. وقيل: إنه صفة للسيل، من العَرامةِ، وهي الشِّدَّةُ والكثرةُ، فتكون إضافةُ "السَّيلِ" إلى "العَرِمِ" مِن إضافةِ الموصوفِ إلى الصِّفةِ. وقيل: إنه اسم الوادي الذي كان يأتي منه السَّيل. وقيل: هو المُسَنَّاةُ أو السِّكْرُ الذي يَحبِسُ ماءَ السَّدِّ[2]. ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ﴾ لما بدّلوا الشكر الحسن بالكفر القبيح، بُدِّلوا تلك النعمة بما ذُكِر[3]، والتبديل: التغيير في شيء إما بتغيير صفاته وإما بتغيير ذاته[4]، والمعنى: وجعَلْنا لهم مكانَ الجنَّتينِ اللَّتَينِ كانت فيهما الثِّمارُ النَّضيجةُ، والمناظِرُ الحَسَنةُ البَهيجةُ: جنَّتينِ فيهما ثَمَرٌ خَمْطٌ؛ وهو: ثمر الأراك في قول أكثر المفسرين، أو هو النَّبْت الذي قد أخذ طعمًا من المرارة حتى لا يمكن أكله. و (الأثل) هو نوع من الشجر كثير الشوك، و (السدر) هو ما يعرف بالنّبق. أو هو نوع من الثمار التي يقل الانتفاع بها[5].

وفي قوله تعالى: ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ...﴾ من أوجه البلاغة: فن المشاكلة؛ وهو: ذكر الشيء بلفظ غيره، لوقوعه في صحبته، فقد سمَّى البدل ﴿جَنَّتَيۡنِ﴾ للمشاكلة، وفيه

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٢/ ١٦٩.

(٢) ينظر: جامع البيان: الطبري، ٢٠/ ٣٧٨. بحر العلوم: السمرقندي، ٣/ ٨٥. البسيط: الواحدي، ١٨/ ٣٤٣. الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ١٤/ ٢٨٥. نظم الدرر: البقاعي، ١٥،٤٧٨. التحرير والتنوير: الطاهر ابن عاشور، ٢٢/ ١٦٩. والمُسَنَّاة- كما ذكر القرطبي- (١٤/ ٢٨٦): "هي الَّتي يُسَمِّيها أهلُ مِصرَ الجِسرَ؛ فكانوا يفتَحونَها إذا شاؤوا، فإذا رُوِيَت جنَّاهم سَدُّوها".

(٣) ينظر: تيسير الكريم الرحمن: السعدي، صـ٦٧٧.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير، ١٣/ ٢٥٢.

(٥) ينظر: جامع البيان: الطبري، ٢٠/ ٣٨٢. الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ١٤/ ٢٨٦. فتح القدير: الشوكاني، ٤/ ٣٦٨. التفسير الوسيط: طنطاوي، ١١/ ٢٨١.

نوع من التهكم بهم[١].

يقول القرطبي: "وأشجار البوادي لا تُسَمَّى جَنَّةً وَبُسْتَانًا، ولكن لما وقعت الثانية في مقابلة الأولى أُطْلِقَ لفظ الجنّة، وهو كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾[٢][٣]".

﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾؛ "أَيْ: جَزَيْنَاهُمُ الْجَزَاءَ الْمُشَارَ إليه وهو ما تقدم من التبديل بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ. وتقديمه على عامله للاهتمام بشدة ذلك الجزاء، واستحضاره باسم الإشارة لما فيها من عظمة هوله"[٤].

وقيل: التقديم في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ﴾ للتخصيص؛ أي ذلك التبديل جزيناهم لا غيره، أو ذلك الجزاء الفظيع جزيناهم لا جزاء آخر[٥].

وما في اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن مَعنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ رُتبتِهِ في الفَظاعةِ[٦].

يقول سيد طنطاوي: "فالمقصود من الآية الكريمة بيان أن الجحود والبطر، يؤديان إلى الخراب والدمار، وإلى زوال النعم وتحويلها إلى نقم؛ ولذا جاء التعقيب بقوله -تعالى-: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾؛ أي: ذلك الذي فعلناه بهم من تبديل جنتيهم، بجنتين ذواتي أُكلٍ خَمْطٍ هو الجزاء العادل لهم بسبب جحودهم وترفهم وفسوقهم عن أمرنا، وإننا من شأننا ومن سُنَّتِنا أننا لا نعاقب ولا نجازي هذا الجزاء الرادع الشديد، إلا

---

(١) ينظر: الكشاف، ٣/ ٥٧٦. أنوار التنزيل: البيضاوي، ٤/ ٢٤٥. إعراب القرآن وبيانه: محيي الدين درويش، ٨/ ٨٤.

(٢) سورة الشورى، من آية: ٤٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٢٨٨.

(٤) التحرير والتنوير، ٢٢/ ١٧٣.

(٥) ينظر: روح المعاني، ١١/ ٣٠٢.

(٦) ينظر: إرشاد العقل السليم: أبوالسعود، ٧/ ١٢٨.

لمن جحد نِعَمَنا، وكفر بآياتنا، وآثر الغي على الرشد، والعصيان على الطاعة، فاسم الإشارة يعود إلى التبديل الذي تحدثت عنه الآية السابقة. وهو المفعول الثاني لـ ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ مُقدَّم عليه؛ أي: جزيناهم ذلك التبديل لا غيره. والمراد بالجزاء هنا: العقاب"[1].

وقَولُ الله تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ يدُلُّ على خُصوصِ الجزاءِ بالمُبالِغينَ في الكُفرِ، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على عُمومِ الجزاءِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[2]، والجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن المؤمن يُجزَى ولا يُجازَى، فيقال في أفصح اللغة: جَزَى اللهُ المؤمن، ولا يقال: جَازَاه؛ لأن جَازَاه بمعنى كافأه، فالكافر يُجازَى بسيِّئتِهِ مثلها مُكافأةً له، والمؤمن يُزاد في الثواب ويُتفضَّل عليه.

والثاني: أن الكافر ليست له حسنة تكفِّر ذنوبه، فهو يُجازى بجميع الذُّنوب، والمؤمن قد أَحبطت حسناتُه سيِّئاته.

والثالث: أنَّه لا يُجازَى بجميعِ الأعمالِ مع المناقَشةِ التَّامَّةِ إلَّا الكافِرُ، ويدُلُّ لهذا قولُ النَّبيِّ ﷺ: (مَن نُوقِشَ الحِسابَ فقد هَلَك)، فلمَّا سألَتْه عائشةُ رضي الله عنها عن قَولِه تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[3]، قال لها: (ذلكِ العَرضُ)[4].

فهذا الذي صار أمر تَيْنك الْجَنَّتَيْنِ إليه، بعد الثِّمَارِ النَّضيجة، والمناظر الْحَسَنَةِ، وَالظِّلَالِ

---

(١) التفسير الوسيط، ١١/ ٢٨١(بتصرف يسير).

(٢) سورة الزلزلة، من آية:٧.

(٣) سورة الانشقاق، آية:٨.

(٤) ينظر: زاد المسير: ابن الجوزي، ٦/ ٤٤٧. دفع إيهام الاضطراب: الشنقيطي، صـ١٩٠. والحديث أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب من نُوقش الحساب عُذِّب، ٨/ ١١١ برقم (٦٥٣٦)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إثبات الحساب، ٢/ ٢٢٠٤ برقم (٢٨٧٦). واللفظ للبخاري.

العميقة، والأنهار الجارية، تَبَدَّلَتْ ببســاتين أخرى قد ذهبت ثمارها الطيبة اللذيذة، وحلت محلها ثمار مُرَّة لا تؤكل، وتناثرت في أماكنهم الأشــجار التي لا تُســمِن ولا تُغني من جوع؛ وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله، وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل(١).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾(٢).

قال النيسـابوري: "حين ذكر حال مسكنهم وجنَّتَيْهم، وحَكَى تبديل الجنتين بما لا نفع فيه، أراد أن يذكر حال خارج بلدهم وما يؤول إليه أمرُه فقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾"(٣).

فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ "حكاية لما أُوتوا من النَّعمِ البادية في مسـايرهم ومَتاجرهم وما فعلوا بها من الكفران، وما حاق بهم بسـبب ذلك؛ تكملةً لقصـتهم، وبيانًا لعاقبتهم، وإنما لم يذكر الكلَّ معًا؛ لما في التَّثنيةِ والتكريرِ من زيادة تنبيه وتذكير، وهو عطف على ﴿كَانَ لِسَبَإٍ﴾، لا على ما بعده من الجمل النِّاطقةِ بأفعالهم أو بأجزيتها؛ أي: وجعلنا مع ما آتيناهم في مسـاكنهم من فُنون النِّعمِ بينهم؛ أي: بين بلادهم وبين القُرى الشَّاميةِ التى باركنا فيها للعالمين"(٤).

وقال ابن كثير: "يَذْكُرُ -تَعَالَى- مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الغِبْطة وَالنِّعْمَةِ، وَالْعَيْشِ الْهَنِيِّ الرَّغِيدِ، وَالْبِلَادِ الرَّخِيَّةِ، وَالْأَمَاكِنِ الْآمِنَةِ، وَالْقُرَى الْمُتَوَاصِـلَةِ الْمُتَقَارِبَةِ، بَعْضِـهَا مِنْ بَعْضٍ، مع كثرة

(١) ينظر: جامع البيان: الطبري، ٢٠/ ٣٨٢. تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ٦/ ٥٠٨. التفسير الوسيط: طنطاوي، ١١/ ٢٨١.

(٢) سورة سبأ، الآية: ١٨.

(٣) ينظر: غرائب القرآن، ٥/ ٤٩٠.

(٤) إرشاد العقل السليم: أبو السعود، ٧/ ١٢٨.

أشـجارها وزروعها وثمارها، بحيث إِنَّ مُسَـافِرَهُمْ لا يَحْتَاجُ إِلَى حَمل زَادٍ وَلا مَاءٍ، بَلْ حَيْثُ نَزَلَ وَجَدَ مَاءً وَثَمَرًا، ويقيل فِي قَرْيَةٍ وَيَبِيتُ فِي أُخْرَى، بِمِقْدَارِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي سَـيْرِهِمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾"[1].

وقوله تعالى: ﴿قُرًى ظَـٰهِرَةً﴾؛ "أي: متواصـلة تظهر الثانية من الأولى لقُربها منها"[2]. "وَقيل: ﴿ظَـٰهِرَةً﴾ يَعْنِي: للرائي، على معنى: أَنهم كَانُوا إِذا نزلُوا بقرية رَأَوْا قَرْيَة أُخْرَى"[3]. أو "بَيِّنَة وَاضِـحَة، يَعْرِفُهَا الْمُسَـافِرُونَ، يَقيلون فِي وَاحِدَةٍ، وَيَبِيتُونَ فِي أُخْرَى"[4]. وقيل: الظَّاهِرةُ: الَّتي تظهرُ للسَّـائرِ مِن بُعدٍ، بأن كانت القُرى مَبنيَّةً على الآكامِ العالية يُشـاهِدُها المسافِرُ فلا يَضِلُّ طريقَها[5].

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ يقول القرطبي: "أي: جعلنا السَّـيْر بين قُراهم وبين القرى التي باركنا فيها سـيرًا مُقدّرًا من منزل إلى منزل، ومن قرية إلى قرية، أي: جعلنا بين كل قريتين نصـف يوم حتى يكون المَقِيل في قرية والمبيت في قرية أخرى. وإنما يبالغ الإنسـان في السَّـير لعدم الزاد والماء ولخوف الطريق، فإذا وجد الزاد والأمن لم يحمل على نفسه المشقة ونزل أينما أراد"[6].

وقال الآلوسـي: "أي: جعلنا نسـبة بعضـها إلى بعض على مقدار معين من السـير، قيل: مَن سـار من قرية صـباحًا وصـل إلى أخرى وقت الظهيرة والقيلولة، ومن سـار بعد الظهر

(١) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٥٠٨، ٥٠٩.

(٢) الكشف والبيان: الثعلبي، ٨/ ٨٤.

(٣) تفسير السمعاني، ٤/ ٣٢٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٥٠٩.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير، ٢٢/ ١٧٥.

(٦) الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٢٨٩، ٢٩٠.

وصـــل إلى أخرى عند الغروب؛ فلا يحتاج لحمل زاد، ولا مبيت في أرض خالية، ولا يخاف من عدو ونحوه"[١].

﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ على إرادة القول بلســان الحال أو المقال؛ أي: سـيروا متى شـئتم من ليل أو نهار. آمِنِينَ لا يختلف الأمن فيها باختلاف الأوقات، أو سـيروا آمنين وإن طالت مدة ســفركم فيها، أو ســيروا فيها ليالي أعماركم وأيامها لا تلقون فيها إلا الأمن[٢]؛ مما يدل دلالة واضــحة على أنهم كانوا يسـيرون من قرية إلى قرية بالليل والنهار، آمنين من الجوع، والعطش، واللصوص، والسِّباع[٣].

وقوله تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ فيه تَقديمُ اللَّيالي على الأيَّام؛ للاهتمامِ بها في مَقامِ الامتِنانِ؛ لأنَّ المســافرينَ أحوَجُ إلى الأمْنِ في اللَّيلِ منْهم إليه في النَّهارِ؛ لأنَّ اللَّيلَ تَعترِضُهم فيه القُطَّاعُ والسِّباعُ[٤]؛ فقدَّمَ ما هو أدلُّ على الأمْنِ وأعدَلُ للسَّيرِ في البلادِ الحارَّةِ بقولِه: ﴿لَيَالِيَ﴾، وأشارَ إلى كَثرةِ الظِّلالِ والرُّطوبةِ والاعتدالِ الَّذي يُمكِنُ معه السَّيرُ في جَميعِ النَّهارِ بقولِه: ﴿وَأَيَّامًا﴾؛ أي: في أيِّ وَقتٍ شِئتُم[٥].

وفي تنكير ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ إلْماعٌ إلى قِصَرِ أسفارِهم؛ فقد كانتْ قَصيرةً؛ لأنَّهم يَرتَعون في بُحْبُوحةٍ مِن العَيشِ، ورَغَدٍ منه، لا يَحتاجُون إلى مُواصَــلةِ الكَدِّ، وتَجشُّــمِ عَناءِ الأســفارِ للحُصولِ على ما يُرفِّهُ عَيْشَهم[٦].

---

(١) ينظر: روح المعاني، ١١/ ٣٠٤.

(٢) ينظر: أنوار التنزيل: البيضاوي، ٤/ ٢٤٥.

(٣) ينظر: بحر العلوم: السمرقندي، ٣/ ٨٧.

(٤) ينظر: البحر المحيط، ٧/ ٢٦٢. التحرير والتنوير، ٢٢/ ١٧٦.

(٥) ينظر: نظم الدرر: البقاعي، ١٥/ ٤٨٦.

(٦) ينظر: إعراب القرآن وبيانه: محيي الدين درويش، ٨/ ٨٤.

والخلاصـة: فالآية الكريمة تبيِّن مظهرًا من مظاهر النعيم والترف الذي تقلَّب فيه قوم سـبأ، وتُظهِر شـيئًا مما أنعم الله -تعالى- به عليهم، وأنه ما كان من القوم إزاء هذه النعم إلا الكفر بها والتنكُّر لها، وقريب من هذه الآية في معناها قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[2].

يقول البقاعي: "ولما انقضى الخبر عن هذه الأوصاف التي تستدعي غاية الشكر لما فيها من الألطاف، دل على بطرهم للنعمة بها بأنهم جعلوها سببًا للتضجر والمَلال"[3]، فبلغ بهم بطر النعم، أنهم دعوا الله تعالى بقولهم -كما حكى القرآن عنهم-: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾؛ أي: اجعلْ بيننا وبين الشام مفاوز وصحارى متباعدة الأقطار؛ لنركب فيها الرَّواحل، ونتزود الأزواد؛ تبرمًا بالرخاء والرفاهية[4].

والفاء في ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا﴾ لتَعقيبِ قَولِهم هذا إثْرَ إتمامِ النِّعمةِ عليهم باقترابِ المُدُنِ، وتَيسيرِ الأسفارِ، فلمَّا تمَّتِ النِّعمةُ بَطِروها، فحلَّتْ بهم أسبابُ سَلْبِها عنهم[5].

وقد ورد في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا بَـٰعِدْ﴾ ثلاث قراءات متواترة؛ فقرأ يعقوب -وحده- برفع الباء من ﴿رَبَّنَا﴾ على الابتداء، وفتح العين والدال وَأَلِفٍ قبل العين من ﴿بَـٰعِدْ﴾ على

---

(١) سورة النحل، الآية: ١١٢.

(٢) سورة سبأ، الآية: ١٩.

(٣) نظم الدرر، ١٥/ ٤٨٦.

(٤) ينظر: لباب التأويل: الخازن، ٣/ ٤٤٦.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير، ٢٢/ ١٧٦.

أنه ماضٍ: {رَبُّنَا بَاْعَدَ}، وقرأ ابن كثير وأبوعمرو وهشام بنصب باء ﴿رَبَّنَا﴾ على النداء، وبحذف الألف بعد باء ﴿بَٰعِدَ﴾ مع تشديد العين مكسورة وإسكان الدال على أنه فعل أمر: {رَبَّنَاْ بَعِّدْ}، وقرأ الباقون بالنداء -مثل ابن كثير- إلا أنهم بالألف وتخفيف العين ﴿رَبَّنَا بَٰعِدَ﴾ على أنه فعل أمر أيضًا(١).

أمّا القراءة على فعل الأمر فالغرض منها الدعاء، بمعنى أنّ هؤلاء القوم -كما ذكر صاحب "الكشاف"- بطروا النعمة، وسَئِمُوا من طيب العيش، وملُّوا العافية، فطلبوا النكد والتعب، كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم، مكان المَنّ والسَلْوَى، وقالوا: لو كان جَنَى جنانِنا أبعد كان أجدر أن نشتهيه، وتمنّوا أن يجعل الله بينهم وبين الشام مفاوز ليركبوا الرواحل فيها ويتزودوا الأزواد، فجعل الله لهم الإجابة(٢).

ومردُّ طلبهم هذا "يحتمل وَجْهَيْنِ، أَحَدُهُمَا: أَنْ يَسْأَلُوا بَطَرًا كَمَا طَلَبَتِ الْيَهُودُ الثُّومَ وَالْبَصَلَ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لِفَسَادِ اعْتِقَادِهِمْ وَشِدَّةِ اعْتِمَادِهِمْ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَا يُقْدَرُ كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ لِغَيْرِهِ: "اضْرِبْنِي" إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ. وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدَ﴾ بِلِسَانِ الْحَالِ، أَيْ لَمَّا كَفَرُوا فَقَدْ طَلَبُوا أَنْ يُبَعِّدَ بَيْنَ أَسْفَارِهِمْ وَيُخَرِّبَ الْمَعْمُورَ مِنْ دِيَارِهِمْ"(٣).

أمّا قراءة {رَبُّنَا بَاْعَدَ} بالرفع، فهي جملة خبرية "والمعنى خلاف الأوّل، وهو استبعاد مسايرهم على قِصَرها ودنوّها؛ لفرط تنعُّمِهِم وترفُّهِهم"(٤)، وتكون هذه القراءة قد أفادت "شَكْوَى بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ مِمَّا حَلَّ بِهِمْ مِنَ بُعْدِ الْأَسْفَارِ"(٥).

---

(١) ينظر: النشر: ابن الجزري، ٢/ ٣٥٠. البدور الزاهرة: عبدالفتاح القاضي، ١/ ٢٦٠.

(٢) ينظر: الكشاف: الزمخشري، ٣/ ٥٧٧.

(٣) مفاتيح الغيب: الرازي، ٢٥/ ٢٠٢.

(٤) الكشاف: الزمخشري، ٣/ ٥٧٧.

(٥) البحر المحيط: أبوحيان، ٧/ ٢٦٢.

والحاصل: لا تعارض بين هذه القراءات في المعنى، فقد أفادت كلها تبرُّم أهل سبأ، وكفرهم بنعم الله عليهم، وكرههم ما كانوا فيه من السعة والرفاهية، وسؤالهم هذا السؤال شبيه بطلب قوم موسى البصل والثوم مكان المَنّ والسَلْوَى، كما حكى القرآن قولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾[1]، وبهذا يدخل قوم سبأ في جملة من قال الله في حقهم: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾[2].

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يقول الشوكاني-ما ملخصه-: "﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾؛ حيث كفروا بالله، وَبَطَرُوا نعمته، وتعرضوا لنِقْمَتِه ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدث الناس بأخبارهم، والمعنى: جعلناهم ذوي أحاديث يتحدَّث بها مَن بعدهم تعجبًا مِن فِعلهم، واعتبارًا بحالهم وعاقبتهم ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾؛ أي: فرَّقناهم في كل وجه من البلاد كل التفريق، وهذه الجملة مبينة لجعلهم أحاديث؛ وذلك أن الله -سبحانه- لما أغرق مكانهم، وأذهب جنتهم؛ تفرقوا في البلاد فصارت العرب تَضْرب بهم الأمثال فتقول: تفرقوا أيدي سبأ[3]. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾؛ أي: فيما ذُكِر من قِصَّتهم، وما فعل الله بهم لآيات بينات ودلالات واضحات ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ أي: لكل من هو كثير الصبر والشكر، وَخَصَّ الصَّبَّارَ الشَّكُورَ؛ لِأَنَّهُمَا الْمُنْتَفِعَانِ بِالْمَوَاعِظِ وَالْآيَاتِ"[4].

وفي تعبير القرآن الكريم عما آل إليه أمر سبأ بعبارة "التَّمزيقِ الخاصِّ بتَفريقِ المُتَّصلِ

---

(١) سورة البقرة، من آية: ٦١.

(٢) سورة القصص، الآية: ٥٨. وينظر: الحجة: أبوعلي الفارسي، ٦/ ١٩.

(٣) ينظر: مجمع الأمثال: الميداني، ١/ ٢٧٥.

(٤) فتح القدير، ٤/ ٣٧٠(بتصرف يسير).

وخَرْقِه، مِن تَهويلِ الأمْرِ والدَّلالةِ على شِـدَّةِ التَّأثيرِ والإيلامِ ما لا يَخْفى؛ أي: مَزَّقناهم تَمزيقًا لا غايةَ وراءَهُ؛ بحيثُ يُضرَبُ به الأمثالُ في كلِّ فُرقةٍ ليس بعْدَها وِصالٌ"[١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ تَذييلٌ، وافتِتاحُها بأداةِ التَّوكيدِ؛ للاهتِمامِ بالخبَرِ، ويَظهَرُ أنَّ هذا التَّذييلَ تَنْهيةٌ للقِصَّةِ، وأنَّ ما بعْدَ هذه الجُملةِ مُتعلِّقٌ بالغرَضِ الأوَّلِ المُتعلِّقِ بأقوالِ المشـركينَ، والمُنتقَلِ منه إلى العِبرةِ بداودَ وسُـليمانَ، والمُمثَّلِ لحالِ المُشـركينَ فيه بحالِ أهْلِ سَـبأٍ[٢]. يقول ابن كثير: "إن في هذا الذي حلَّ بهؤلاء من النِّقمة والعذاب، وتبديل النعمة، وتحويل العافية، عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام، لعبرة ودلالة لكل عبد صبَّار على المصائب، شكور على النِّعم"[٣].

المطلب الثاني: أهم الدروس والعِبَر المُستفادة من القِصَّة:

في قصة أهل سبأ دروس كثيرة عظيمة وعِبَر مستفادة، منها:

أولًا: أثر المعاصـي والذنوب في هلاك الأمم والشـعوب: من خلال هذه القصـة يتبين ما للذنوب من آثار وخيمة، وعواقب أليمة على الأفراد والأمم والمجتمعات؛ فهي سَبَبٌ رئيسٌ لِنُزُولِ الْعَذَابِ في الدنيا، وَرَفْعِ الْعَافِيَةِ، وَإِبْدَالِ النِّعَمِ نِقَمًا.

والناظر بعين الاعتبار إلى هذه القصـة القرآنية يتعجب أشـد العجب كيف حُوِّلت هذه النعم العظيمة إلى نِقمٍ كبيرة على أهل سـبأ، فبعد أن كانت أمة مُمَكَّنة في أرضـها، ترفل في خيراتها بطيب أرضها، وكثرة أشجارها وزروعها وثمارها، وتقارب أسفارها، بُدِّلوا بالفرقة والتشـرذم بعد الاجتماع، وبمحق البركة بعد طيب البقاع، وبتباعد الأسـفار بعد تقاربها، واسـتُبدلوا بعد الأمن خوفًا، وبعد العز ذلًّا، وبعد الرخاء شـدَّةً، وبعد الغِنَى فقرًا. قال تعالى:

---

(١) إرشاد العقل السليم: أبو السعود، ٧/ ١٢٩.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير، ٢٢/ ١٨٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٥١٢.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾[1].

ثانيًا: سنة الله في بطر النعمة: إنّ الله ﷻ خلقَ هذا الكونَ على سننٍ ثابتةٍ لا تتبدلُ ولا تتغيرُ إلى قيامِ الساعةِ، ومن هذه السنن: سنة الله في جحود النعم، وبطرها، والإجحاف في إيفائها حقَّها من الشكر، واستخدامها في غير وجهها، وصرفها في غير مرضاة واهبها؛ يؤدي إلى الخراب، ويُعَرِّضُ بها للزوال، وتحويلها إلى نقم.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾[2].

وتلك سنة الله ﷻ في خلقه. قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾[3]. **وقال تعالى:** ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾[4].

ثالثًا: خطورة الإعراض عن أَمْرِ اللهِ -تَعَالَى-، وعدم الاستجابة لأحكامه وأوامره: فقد أخبر اللهُ -تَعَالَى- عن قوم سبأ وما كانوا فيه من نعيم الدنيا، ثم تَحَوَّلَتِ الْعَافِيَةُ عنهم، وَأُبْدِلَ حَالُهُمْ من النِّعْمَةِ إلى النِّقْمَةِ، وكان مآلهم إلى الزوال؛ بسبب إِعْرَاضِهِم عن عبادة الله وعن شكر نعمته.

رابعًا: التحذير من الوقوع في مخالفة أحكام الله ورسله: فالعُتُوّ عن أمر الله ورسله، وقلة الاكتراث بأمرهما، والتمادي في الباطل على وجه العتو والعناد والتكبر آفات تستوجب غضب الله ﷻ، وتؤدي إلى الخسران والهلاك في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن

---

(١) سورة الشورى، آية: ٣٠.

(٢) سورة النحل، آية: ١١٢.

(٣) سورة الأحزاب، آية: ٦٢.

(٤) سورة فاطر، من آية: ٤٣.

قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾[1] .

وقال سبحانه: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾[2].

خامسًا: في القصة الكريمة تتجلى لنا دلائل وشواهد قدرة الله وعظمته، وعدله وحكمته، وتفرّده ﷻ بتصريف أمور العباد والبلاد؛ ولذلك جمَعَ لفظ (الآياتِ) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾؛ لأنَّ في تلك القصَّةِ عِدَّةَ آياتٍ وعِبَرٍ.

يقول الطاهر ابن عاشور: "وَجُمِعَ "الْآيَاتُ"؛ لأن في تلك القصة عدة آيات وعِبَر؛ فحالة مساكنهم آية على قدرة الله ورحمته وإنعامه، وفيه آية على أنه الواحد بالتصرف، وفي إرسال سيل العرم عليهم آية على انفراده تعالى بالتصرف، وعلى أنه المنتقم، وعلى أنه واحد؛ فلذلك عاقبهم على الشرك. وفي انعكاس حالهم من الرَّفَاهَةِ إلى الشَّظَفِ آية على تقلب الأحوال وتغير العالَم، وآية على صفات الأفعال لله -تعالى- من خلق ورزق وإحياء وإماتة، وفي ذلك آية من عدم الاطمئنان لدوام حالٍ في الخير والشر. وفيما كان من عمران إقليمهم واتساع قُراهم إلى بلاد الشام آية على مبلغ العمران وعظم السلطان من آيات التصرفات، وآية على أن الأمن أساس العمران. وفي تمنيهم زوال ذلك آية على ما قد تبلغه العقول من الانحطاط الْمُفْضِي إلى اختلال أمور الأمة وذهاب عظمتها، وفيما صاروا إليه من النزوح عن

---

(١) سورة الطلاق، آيتا:٨، ٩.

(٢) سورة القصص، آيتا:٥٨، ٥٩.

الأوطان والتشتت في الأرض آية على ما يلجىء الاضطرارُ إليه الناسَ من ارتكاب الأخطار والمكاره"[١].

سادسًا: في قصة سبأ دَلالةٌ واضِحةٌ على أنَّ تأمينَ الطَّريقِ، وتيسيرَ المواصَلاتِ، وتقريبَ البُلدانِ؛ لتيسيرِ تبادُلِ المنافِعِ، واجتلابِ الأرزاقِ مِن هنا ومن هناك: نِعمةٌ إلهيَّةٌ، ومَقصدٌ شَرعيٌّ يُحِبُّه اللهُ لِمَن يحِبُّ أن يَرحمَه مِن عبادِه؛ من أجْلِ ذلك كان حَقًّا على وُلاةِ أمورِ الأمَّةِ أن يَسعَوا جُهدَهم في تأمينِ البلادِ، وحِراسةِ السُّبُلِ، وتيسيرِ الأسفارِ، وتقريرِ الأمنِ في سائرِ نواحي البِلادِ؛ جليلِها وصغيرِها، بمُختَلِفِ الوسائِلِ، وكان ذلك مِن أهَمِّ ما تُنفَقُ فيه أموالُ المُسلِمينَ، وما يَبذُلُ فيه أهلُ الخَيرِ من المُوسِرينَ أموالَهم؛ عَونًا على ذلك[٢].

سابعًا: **فضيلة الصبر والشكر وعلوّ شأنهما في الدين**: فإن واجِبَ المؤمِنِ التَّخلُّقُ بالخُلُقَينِ: الصَّبرُ على المكارِهِ، والشُّكرُ على النِّعَمِ؛ فالصَّبَّارُ يَعتبِرُ مِن تلك الأحوالِ، فيَعلَمُ أنَّ الصَّبرَ على المَكارِهِ خيرٌ مِن الجَزعِ، ويَرتكِبُ أخَفَّ الضَّررَينِ، ولا يَستخِفُّه الجَزَعُ فيُلْقي بنَفْسِه إلى الأخطارِ، ولا يَنظُرُ في العواقبِ! والشَّكورُ يَعتبِرُ بما أُعطِيَ مِن النِّعمِ، فيَزدادُ شُكرًا للهِ تعالى، ولا يَبطَرُ النِّعمةَ ولا يَطْغى فيُعاقَبَ بسَلْبِها كما سُلِبَت عنهم، ومِن وراءِ ذلك أنْ يَحرِمَهم اللهُ التَّوفيقَ، وأنْ يَقذِفَ بهم الخِذْلانُ في بُنَيَّاتِ الطَّريقِ[٣].

ثامنًا: في قصة سبأ دَليلٌ واضح على تشريفِ هذه الأمَّةِ، وتفضيلِ رسولِها على سائرِ الرُّسُلِ -صلواتُ الله عليه وعليهم-؛ وذلك أنَّه ﷺ كان مِن سُنّته في الأممِ السالفةِ: الاستئصال

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٢/ ١٨٠.

(٢) التحرير والتنوير، ٢٢/ ١٨١.

(٣) المرجع السابق، ٢٢/ ١٨٠، ١٨١. "وبُنَيَّاتُ الطَّريقِ: هي الطُّرُقُ الصِّغارُ تَتَشَعَّبُ مِن الجادَّةِ". يُنظر: مختار الصحاح: الرازي، بَ نَ يَ، صـ٤٠.

الدنيوي والإهلاك للجميع عند العناد والمكابرة، لكن الله ﷻ تفضّـــل على هذه الأمة التي بُعِث فيها الرسول ﷺ برفع عذاب الاستئصال إكرامًا لنبيّها ﷺ.

وأخيرًا: وجوب الاعتبار بقصص السابقين، والاتعاظ بعاقبة الهالكين: فما قصَّ الله علينا قصـــص الأمم الغابرة وما حلَّ بها إلا للاعتبار بأحوال المُهلَكين، والاتّعاظ بمآلهم، والازدجار عن أفعالهم؛ حتى لا يصـــيبنا ما أصـــابهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ (١).

(١) سورة آل عمران، آيتا:١٣٧، ١٣٨.

الخاتمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصـلاة والسـلام على أشـرف الأنبياء والمرسـلين، سـيدنا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد،،،

ففي نهاية هذا البحث- الذي أسـأل الله أن يجعله خالصًـا لوجهه الكريم- أُسـجِّل أهم النتائج التي توصلتُ إليها، ومنها:

أولًا: وَرَدَ الجذر (تَ رِ فَ) في القرآن الكريم في ثمانية مواضـع في القرآن الكريم، وجميع السُّـور التي ورد فيها الحديث عن التَّرف سـورٌ مكيَّة؛ وذلك لما فيها من الوعيد والزجر المُناسبيْن للمشركين المُخاطَبين بهذه الآيات؛ ولذلك لم يرد ذِكر التَّرف في مواضعه الثمانية إلا في سياق الذم.

ثانيًا: التَّرَف من أهم سـنن الله المُطَّردة في إهلاك الأمم، وهو أسـاس كل فسـاد، والسـبب الرئيس في سقوط الحضارات وهلاك المجتمعات.

ثالثًا: وجوب النظر في سُـنن الله -تعالى- والاعتبار بما آلَ إليه مصـير المُترَفين في الأمم السابقة.

رابعًا: يتميز القصـص القرآني بالواقعية في أحداثه، كما يتميز بدقة ألفاظه، وروعة أسـاليبه، وهو جانب من جوانب عظمة القرآن، ووجه من وجوه إعجازه وبلاغته.

خامسًـا: من رحمة الله بالأمة المحمدية أن جعلها آخر الأمم؛ لتعرف سِـرّ قيام الحضـارات فتأخذ بها، وتتعرف على سـر سـقوطها، وأسـباب هلاكها وانهيارها، فلا تغتر بمظاهرها، فتعْلَم أن سنة الله لا تتخلف في الآخرين، كما لم تتخلف في الأولين.

سادسًا: أظهرت قصة سبأ أن الأمنَ في الأوطانِ مِن أكبَرِ النِّعَمِ، وأن أعظم سبب لضمان قيام

أي حضارة يَكْمُنُ فِي الاستقامة على أمر الله –تعالى– والعمل بشرعه وهداه، فما من أمة من الأمم أصـابها نوع من أنواع الدمار والخراب، أو هبطت من علياء العز إلى درك الهوان إلا بسبب تركها منهج الخير والصلاح، وأخذها بمناهج الشر والفساد، وإعراضها عن أمر الله، وعدم استجابتها للعمل بأحكامه.

وأخيرًا: يتوجب علينا أن نكون على حذر مما حدث بالأمم السـالفة التي من الله عليها بأصـناف من النعم، ومع ذلك كفرت بهذه النعم فلم تشـكر، بل جحدت الحق ولم تؤمن؛ فاستحقوا عقابه بزوال نعمه، أو إبدالها نقمًا، وجعلهم الله مضربًا للأمثال ليكونوا عبرة لمن جاء بعدهم.

المقترحات

في ختام هذا البحث أقترح ما يأتي:

١ – دراسة أثر القصص القرآني في ترسيخ القِيَم.

٢ – دراسة الأسرار البلاغية في القصة القرآنية.

٣– دراسـة الفوائد التربوية والمعاني الإيمانية المسـتنبطة من القصـص القرآني وأثرها في الدعوة إلى الله في الواقع المعاصر.

هذا، والحمد لله أولًا وآخرًا، وصلى الله على سيدنا محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

ثانيًا: الكتب المطبوعة

أ- كتب التفسير وعلوم القرآن:

- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر: البنا الدمياطي، أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الغني الدمياطيّ، شهاب الدين الشهير بالبنا (المتوفى: ١١١٧هـ)، تحقيق: أنس مهرة، (دار الكتب العلمية. بيروت، ١٤٢٧هـ).
- الأساس في التفسير: سعيد حوّى (المتوفى ١٤٠٩ هـ)، دار السلام- القاهرة، ط٦، ١٤٢٤هـ.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين الشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، دار الفكر- بيروت، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
- إعراب القرآن وبيانه: محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى : ١٤٠٣هـ)، دار الإرشاد للشئون الجامعية - سوريا، (دار اليمامة- بيروت)، (دار ابن كثير- بيروت)، ط٤، ١٤١٥هـ.
- البحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، تحقيق/ عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون، الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.
- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة: عبدالفتاح بن عبدالغني بن محمد القاضي (المتوفى: ١٤٠٣هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان.
- التحرير والتنوير؛ المُسمَّى "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد": الطاهر ابن عاشور (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر- تونس، ١٩٨٤م.
- تفسير ابن عطية؛ المُسمَّى: "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز": أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، تحقيق/ عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.
- تفسير أبي السعود؛ المُسمَّى: "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم": أبو السعود العمادي

محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

- تفسير الآلوسي؛ المُسمَّى: "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني": شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ)، تحقيق/ علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.
- التفسير البسيط: الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، (عمادة البحث العلمي- جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. السعودية، ١٤٣٠هـ).
- تفسير البغوي؛ معالم التنزيل في تفسير القرآن: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠هـ)، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧ م.
- تفسير البيضاوي= أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، تحقيق/ محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.
- تفسير الزمخشري؛ المُسمَّى "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل": الزمخشري (المتوفى: ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي- بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.
- تفسير السعدي= تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، تحقيق/ عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.
- تفسير السمرقندي= بحر العلوم: أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي، تحقيق: علي محمد معوض- عادل أحمد عبد الموجود- زكريا النوتي، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.
- تفسير الطبري؛ المُسمَّى "جامع البيان عن تأويل آي القرآن": محمد بن جرير الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق/ أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م.
- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): محمد رشيد رضا، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، (الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م).

- تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق/ سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
- تفسير القرآن: السمعاني، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي (المتوفى: ٤٨٩هـ)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم- غنيم بن عباس بن غنيم، (دار الوطن. الرياض، ١٩٩٧م).
- التفسير القرآني للقرآن: عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد ١٣٩٠هـ)، دار الفكر العربي- القاهرة.
- تفسير المراغي: أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، ط١، ١٣٦٥هـ- ١٩٤٦م.
- تفسير النيسابوري= غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق/ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم: محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر- القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.
- الجامع لأحكام القرآن= تفسير القرطبي: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
- حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِي وكِفَايةُ الرَّاضِي عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (المتوفى: ١٠٦٩هـ)، دار صادر- بيروت.
- الحجة في القراءات السبع: الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبد الله (المتوفى: ٣٧٠هـ)، تحقيق/ عبد العال سالم مكرم، دار الشروق- بيروت، ط٤، ١٤٠١هـ.
- الحجة للقراء السبعة: الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ الأصل، أبو علي (المتوفى: ٣٧٧هـ)، تحقيق/ بدر الدين قهوجي- بشير جويجابي، دار المأمون للتراث- دمشق: بيروت، ط٢، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور: عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي ت: (٩١١هـ)، تحقيق/ مركز هجر للبحوث، دار هجر- القاهرة، ١٤٢٤هـ.
- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، مكتبة ابن تيمية- القاهرة ، توزيع: مكتبة الخراز- جدة، ط١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.
- رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز: عزالدين عبد الرازق بن رزق الله الرسعني الحنبلي (٦٦١هـ)، تحقيق/ عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، مكتبة الأسدي- مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.
- زاد المسير في علم التفسير: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، ط٣، ١٤٠٤هـ.
- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (المتوفى: ٩٧٧هـ)، الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة، ١٢٨٥هـ.
- صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.
- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري (المتوفى: ٩٢٦هـ)، تحقيق/ محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
- فتح القدير: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ.
- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف): شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (المتوفى: ٧٤٣ هـ)، الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط١، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م.

- الكشف والبيان عن تفسير القرآن: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م.
- لباب التأويل في معاني التنزيل: الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن (المتوفى: ٧٤١هـ)، تحقيق: محمد علي شاهين، (دار الكتب العلمية. بيروت، ١٤١٥هـ).
- اللباب في علوم الكتاب: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٥هـ)، تحقيق/ عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل: النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (المتوفى: ٧١٠هـ)، تحقيق: يوسف علي بديوي، (دار الكلم الطيب. بيروت، ١٩٩٨م).
- معاني القراءات: الأزهري، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)، (الناشر: مركز البحوث في كلية الآداب- جامعة الملك سعود. السعودية، ١٩٩١م).
- معاني القرآن وإعرابه: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)، تحقيق/ عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب- بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م.
- معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (المتوفى: ٢٠٧هـ)، تحقيق/ أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبدالفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة- مصر، ط١.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبدالباقي، دار الحديث- القاهرة
- مفاتيح الغيب= التفسير الكبير: فخر الدين الرازي (المتوفى: ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ.
- المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني

(المتوفى: ٥٠٢هـ)، تحقيق/ محمد سيد كيلاني، (بدون ناشر ولا تاريخ).

- النَّشر في القراءات العشر: ابن الجزري، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى : ٨٣٣ هـ)، تحقيق: علي محمد الضباع، (الناشر: المطبعة التجارية الكبرى، بدون).
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي- القاهرة.
- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه: أبو محمد مكي بن أبي طالب الأندلسي (المتوفى: ٤٣٧هـ)، تحقيق/ مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي- جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة- كلية الشريعة والدراسات الإسلامية- جامعة الشارقة، ط١، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

ب- كتب الحديث الشريف وعلومه:

- صحيح البخاري = الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسُنَنه وأيامه: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري (المتوفى: ٢٥٦هـ)، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.
- صحيح مسلم= المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي- بيروت.

ج- المعاجم اللغوية:

- أساس البلاغة: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، تحقيق/ محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.
- تاج العروس من جواهر القاموس: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الملقّب

بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، تحقيق/ مجموعة من المحققين، مطبعة حكومة الكويت، ط٢، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

- تهذيب اللغة: محمد بن أحمد بن الأزهري (المتوفى: ٣٧٠هـ)، تحقيق/ عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار القومية العربية للطباعة، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق/ أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين- بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
- كتاب التعريفات: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
- لسان العرب: محمد بن مكرم بن على، جمال الدين ابن منظور الأنصاري (المتوفى: ٧١١هـ)، دار صادر- بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
- مختار الصحاح: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)، تحقيق/ يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية- الدار النموذجية، بيروت، ط٥، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
- معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، تحقيق/ عبد السلام محمد هارون، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

د- مراجع تتعلق بظاهرة الترف، والسنن الإلهية:

- الآيات الواردة في هلاك الأمم دراسة موضوعية: عمر سلامة سليمان البرصان، رسالة ماجستير بكلية الدراسات الفقهية والقانونية- جامعة آل البيت: الأردن، ٢٠٠٢م.
- الترف وأثره في مصائر الأمم: محمد المجذوب، مجلة الوعي الإسلامي، العدد (١٥٠)، شهر يونيو ١٩٧٧م، صـ٢٣- ٣٠.
- حديث القرآن عن الترف والمترفين: أحمد سالم محمد باطاهر، مجلة جامعة حضرموت للعلوم الإنسانية، المجلد (١٦)، العدد (٢)، ديسمبر ٢٠١٩م، صـ٢٨١- ٣٠٤.

- السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية: عبدالكريم زيدان، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط١، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.
- سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها: محمد هيشور، المعهد العالمي للفكر الإسلامي- القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.
- سنن الله في المجتمع من خلال القرآن: محمد الصادق عرجون، (بدون بيانات).
- قيم حضارية في القرآن الكريم عالم ما قبل القرآن: توفيق محمد سبع، دار المنار للنشر والتوزيع- القاهرة، ط٢، (بدون تاريخ).
- نظرة القرآن الكريم إلى الترف والمترفين: مريم محمود حسن صالح، رسالة ماجستير بكلية الدعوة وأصول الدين- جامعة أم القرى، ١٩٨٧م.

هـ: أخرى:

- الخطايا في نظر الإسلام: عفيف عبدالفتاح طبارة، دار العلم للملايين- بيروت، ط٢، ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م.
- مجمع الأمثال: أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (المتوفى: ٥١٨هـ)، تحقيق/ محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة- بيروت: لبنان، (بدون).
- مروج الذهب ومعادن الجوهر: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (المتوفى: ٣٤٦هـ)، تحقيق/ أسعد داغر، دار الهجرة، ط١، ١٤٠٩هـ.
- نحن والحضارة الغربية: أبوالأعلى المودودي، دار الفكر بدمشق، (بدون).
- نظرات في القرآن الكريم: محمد الغزالي، دار نهضة مصر، ط٦، ٢٠٠٥م.

فهرس موضوعات البحث

المحتويات

الملخـــص ٣

المقدمـــة ٥

المبحث الأول: التعريف بمفهوم التَّرف والمصطلحات ذات الصلة، وذِكر مواضع وُرُودِ التَّرف في القرآن ١٤

المطلب الأول: التعريف بمفهوم التَّرف والمصطلحات ذات الصِّلة. ١٤

المطلب الثاني: مواضع وُرُودِ التَّرف في القرآن الكريم. ١٨

المبحث الثاني: قِصَّة سبأ أُنموذجٌ قرآنيٌّ لمفاسد التَّرف ومخاطره على المجتمعات ٤٣

المطلب الأول: الآيات القرآنية الواردة في قصة سبأ، ومناسبتها لما قبلها، وتفسيرها. ٤٣

المطلب الثاني: أهم الدروس والعِبَر المُستفادة من القِصَّة: ٥٩

الخاتمـــــة ٦٤

قائمة المصادر والمراجع ٦٦

فهرس موضوعـات البحث ٧٤